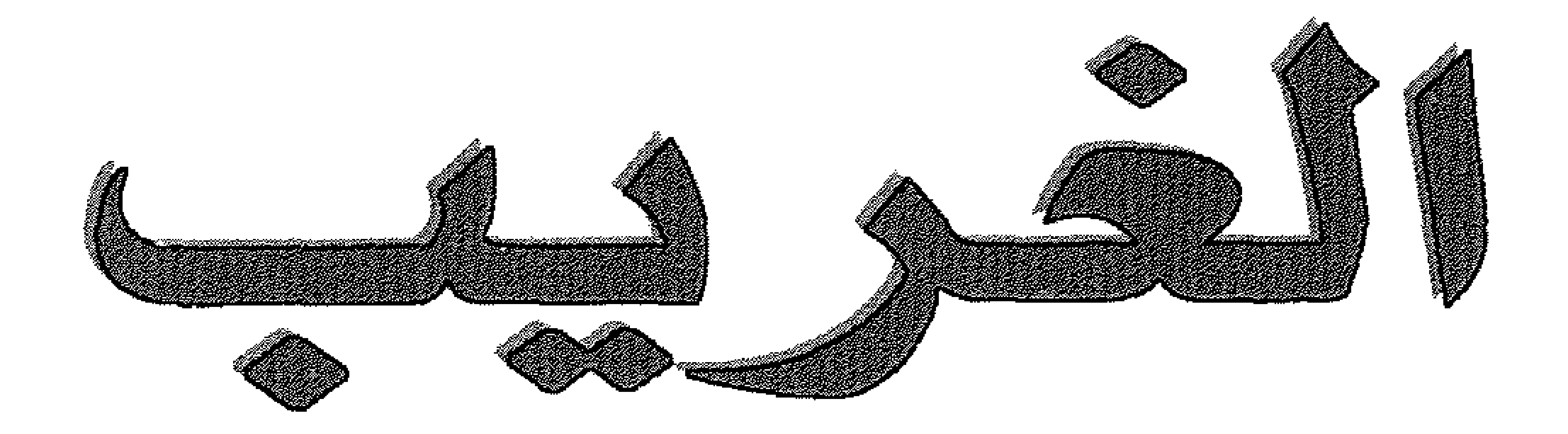
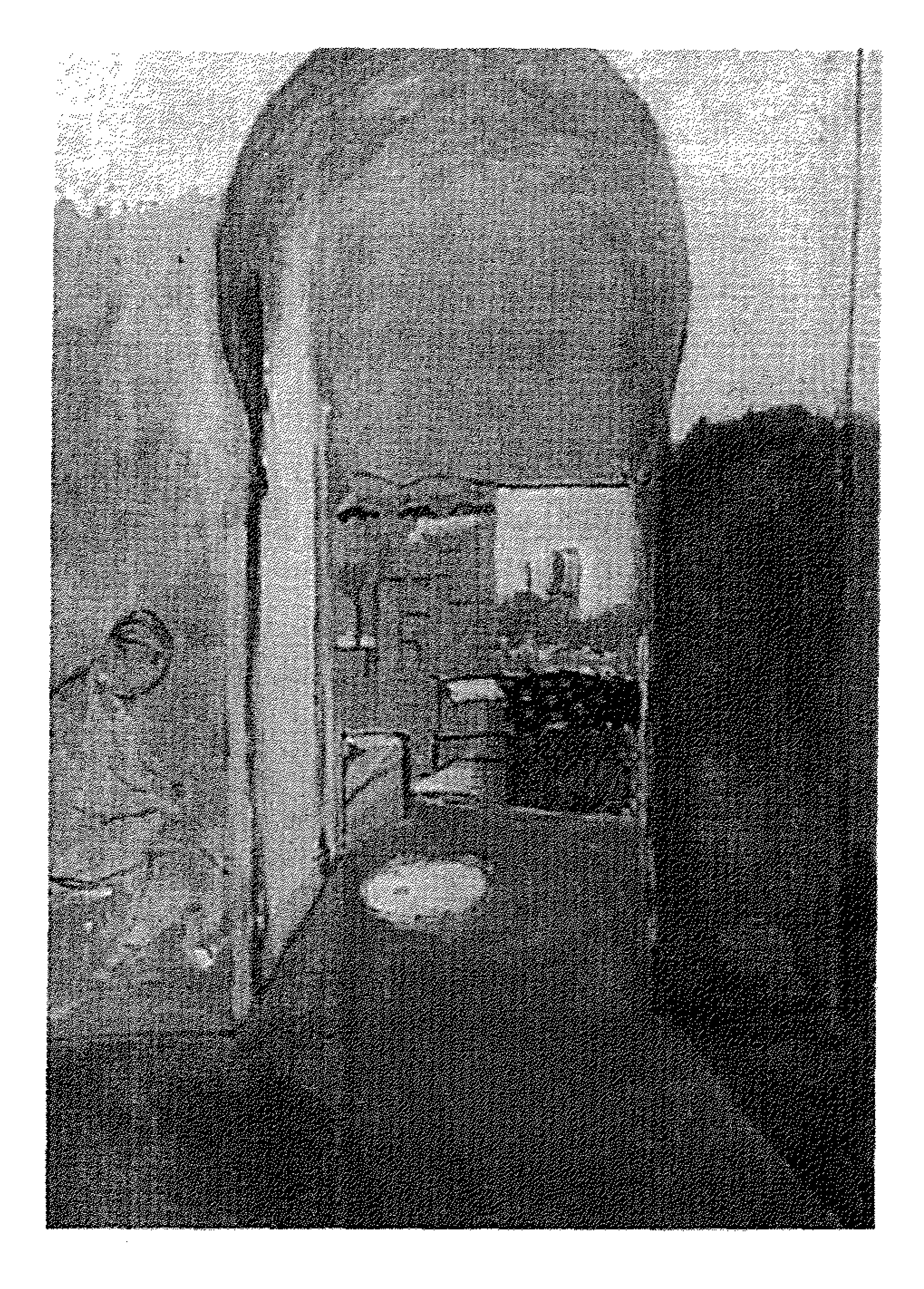
ليلى أبو زيد



قصص من المغرب



المركز الثقافي العربي

إهـــــداء2005

جمعية أصدقاء المكتبة

المغربية

طُبع هذا الكتاب بدعم من
وزارة الثقافة في المملكة المغربية

الكتاب

الغريب

قصص من المغرب

المؤلف

ليلى أبو زيد

الطبعة

الأولى، 2002

عدد الصفحات: 160

القياس: 14.5 × 21.5

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

الغلاف عن لوحة لماتيس رسمها في المغرب.

رسوم عبد الله برقاوي

ليلى ابو زيد

الغريب

قصص من المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

القصص الثمانية الأولى في هذه المجموعة هي باكورة عملي الأدبي. كتبتها في 1978 ونشرتها صحف مغربية وأذاعها القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية. كنت قد أدرجتها حتى الآن مع رواية عام الفيل في طبعاتها الأربع، حفظا لها من الضياع من جهة، لأنها غير كافية للنشر على حدة، ولأنني كنت أعتقد من جهة أخرى، أنني لن أعود إلى كتابة القصة. وكان النقاد والطلاب الذين كنت قد بدأت ألتقي بهم، ينصرفون إلى عام الفيل وينسون القصص مما جعلني أنا نفسي، على ما يبدو، أطرحها من الحساب.

بعد ذلك نشر جون ماير من جامعة نيويورك ستايت بروكبورت، دراستين قيمتين عن قصتين منها هما الغريب[1]

---

(1) John Maier. 1996 USA. Exchanging Strangeness: Fiction of Jane Bowles and Leila Abouzeid. Mirrors of the Maghreb, Cararan Books, Delmar, New York, pp 151-185.

والطلاق[1]، أدهشني عمق ومصداقية تحليله لهما ونبهني إلى أن عام الفيل قد طغت على القصص وأبخستها حقها.

كانت الترجمة الفرنسية للكتاب قد بدأت والمترجم قد رفض الجمع بين الرواية والقصص، للسبب نفسه، ولأن ناشرا فرنسيا لن يقبل بحال الجمع بين جنسين أدبيين في كتاب واحد. وقال إن علي، إن أردت لهذه القصص أن تنشر في الترجمة الفرنسية، أن أكتب المزيد منها. وبذلك رجعت إلى كتابة القصة.

الرباط في 7 يوليوز 2001.

ليلى أبوزيد.

---

(1) John Maier. 1996 USA. Leila Abouzeid's, "Divorce". Desert Songs, Western images of Morocco and Moroccan images of the west, State University of New York Press, pp 197-201.

بيت في الغابة



تسللت شمس الربيع، في قرية صغيرة بالأطلس المتوسط، من خلال أشجار الصنوبر الباسقة، المورقة أبدا كأشجار الزيتون، وتناثرت بقعها المضيئة على أرض مكسوة بإبر الصنوبر الجافة في خشونة محببة، وعبر الأرض غدير تسمع رقرقته الصافية ويمتلئ بأحجار ملساء يشف عنها الماء.

إلى جانب الجدول ثلاث طفلات يملأن الغابة بأصواتهن الصغيرة. يظهر من تشابه ملامحهن وملا بسهن أنهن أخوات. كبراهن في حوالي السابعة، حادة ومتوقدة، هي التي تتخذ المبادرات. قالت بلهجة صارمة:

ـ أنا أتولى البناء وأنتما تحضران حجارة كهذه.

وناولتهما العيّنة فشرعت الصغيرتان تنقلان الحصيات من الغدير وتترددان كالنملتين بينه وبين المكان الذي وقع عليه

الاختيار، في حين استغرقت الكبرى في البناء. كانت تعثر بين الفينة والأخرى على حصيات لا تعجبها فتقذف بها بعيدا بامتعاض. وتشعر الصغيرتان بالذنب فتقول إحداهما:

ـ لعلها كبيرة.

على أن الملاحظة تحثهما على مضاعفة الجهد وشحذ الهمة. وبعد انطلاق البناء خطرت لهما فكرة عملية. نزلت الوسطى إلى الغدير تبحث في أناة وتركيز عن الحصيات التي أصبحت كأنها اللؤلؤ وكلما عثرت على واحدة بين الحجارة أطلقت ضحكة. أما الصغرى فقد ضمت أطراف ثوبها حتى أصبحت كفوهة الكيس وتقصت أثر أختها لتضع فيه الحصيات. وجاء صوت غليظ:

ـ ستبللين ثيابك!

قالها كهل لم يكن بالإمكان تمييزه من الشجرة التي يتكئ عليها في جلبابه الخشن، الداكن. بدا في هيئته وجلبابه امتدادا للجذع ذي القشور الناتئة حتى استحالت معرفة أين يبدأ الرجل وأين ينتهي الجذع. كانت الطفلة مستغرقة فيما هي فيه فلم تعر كلامه انتباها. عاد يقول:

ـ ألا تسمعين؟

اتضح له أنها لا تسمع فأفرغ كيس قماش صغير من بضع برتقالات وقام إليها. أخذ الحصيات من ثوبها وألقى بها في الكيس ثم وضعه في يدها وهي لا تكاد تشعر به.

عاد إلى مكانه واستلقى على قفاه ساحبا ذراعيه إلى الخلف، متمطيا ثم تنفس بعمق عبق الربيع الدافئ المختلط برائحة الصمغ السائل من جذوع الأشجار. بدت له سيقان الغابة منتظمة كالسواري وتهدلت الأوراق من فوق فظهرت من خلال خضرتها زرقة السماء، ثم أبصر وكرا عجيب الصنعة يتمايل مع الغصن كلما تحرك النسيم ويبدو متمسكا بموقعه كأنه نابت فيه، فقال بصوت خافت:

ـ سبحان الله العلي القدير!

وفي هدوء المكان ولطافة جوه عمه استرخاء شامل استسلم له. وبدأت تصل إلى وعيه، في غفوته، أصوات العصافير والبنات فتهدهد حواسه، كأنها آتية من مكان بعيد. كانت الطفلات قد أنهين البناء فقالت كبراهن:

ـ علينا الآن أن نقطف الزهور لتزيين البيت.

فانطلقن وراء ذلك إلا أن الصغرى لمحت دبورا في صعود ونزول وانعراجات حادة فاستهوتها حركاته وانشغلت

به بعدما أيقنت أنه يرقص على صوت أزيزه. ورأته يرسو على زهرة أقحوان فدنت منه ولبدت له ثم انقضّت عليه، لكنها لم تمسك إلا بطلع الزهرة فقالت مغتاظة:

ـ كدت أمسك به!

وواصل هو رقصه وأزيزه متنقلا بين أجمات الأعشاب والأزهار وأوراق الصفصاف المتهدل ثم نأى.

عادت أختاها محملتين بما فيه الكفاية من أزهار وحبات صنوبر ضخمة متفتحة، وعادت هي في أعقابهما خاوية الوفاض تترقب التأنيب ثم انكببن على نفض حبات الصنوبر لاستخراج بذورها اللذيذة . وتنبهت الصغرى إلى نوم الكهل فأغراها بلعبة جديدة.

التقطت من الأرض ورقة إبرية جافة وبدأت تخزه بها في أرنبة أنفه باهتمام وهو، في نومه، يغضن أنفه ويحركه كما تفعل الأرانب حتى أيقظته. قام يرعد ويبرق وأبصر دومة قريبة فانتزعها بقوة زوده بها الغضب. وحين استعاد صحوه وهدوءه جلس يقضم الدومة حتى بدا له أن يعلن الرحيل.

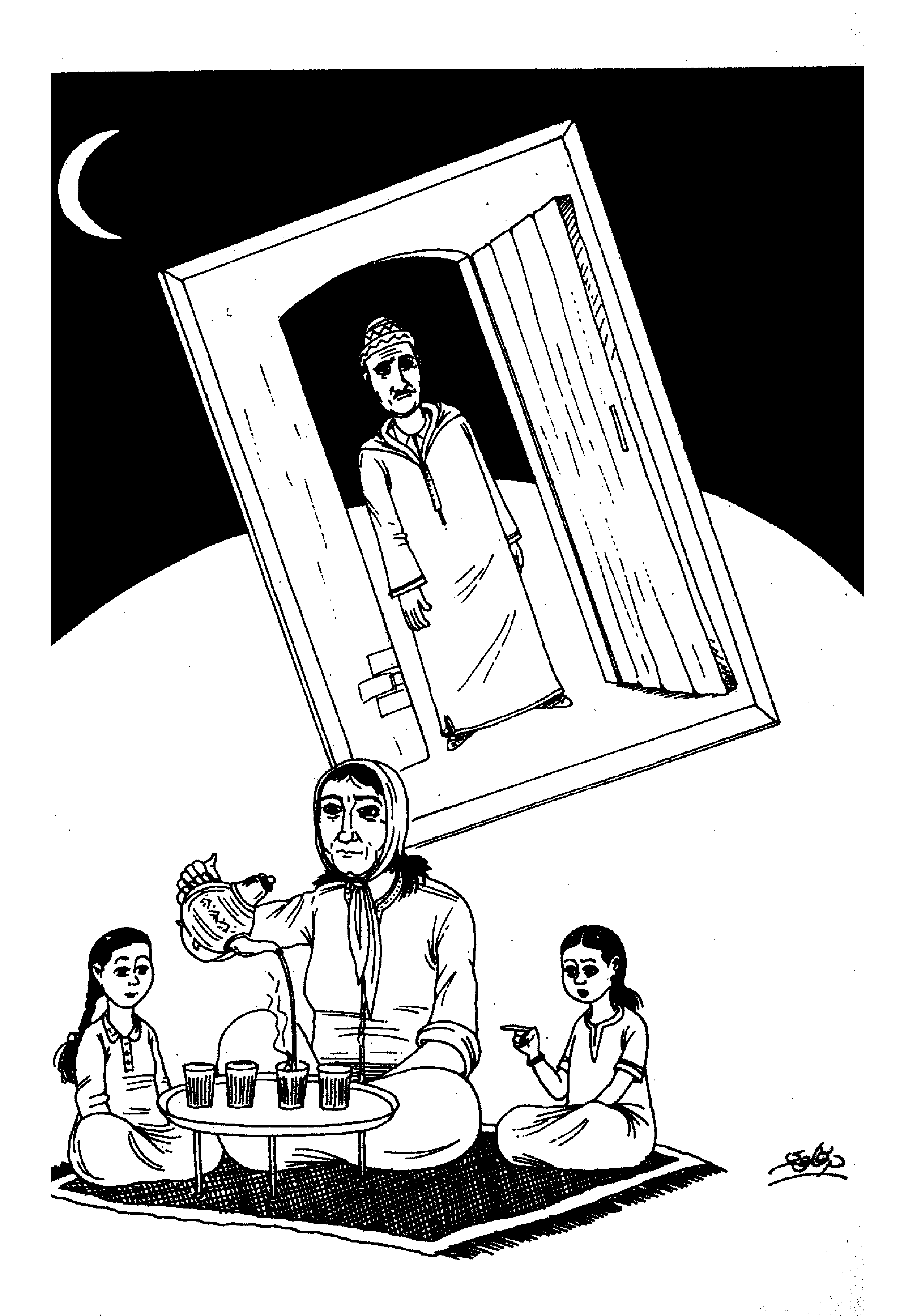
في غمرة الانصراف للّعب والتهام البرتقال وطأت الطفلات على البيت ثم ابتعدن بصحبة الكهل رويدا رويدا

فران السكون والغبش على الغابة واتضحت رقرقة الغدير ويقي البيت مفكك الأضلاع، زائغ الحصيات، ذابل الزهور، يلفه الحزن والوحدة.

1978



عطلة



التصقت شمس يونيو بحافة السماء. خبت فبدت وقد أمكن التحديق فيها أسطوانة حمراء تضيء حقول القمح. لف الدنيا سلام وهدوء تخللهما حفيف السنابل اليابسة ورجع نشيد بعيد يقترب مع سرب تلميذات. عَبَرَ السرب في بهجة وكلما تقدم تناقص حتى لم تبق إلا صبية واحدة اندفعت إلى بيتها وهي تترنم بلحن النشيد ودخلت إحدى الحجرات فوقف اللحن في حلقها. وعندما قالت لها أمها:

ـ سلمي على ابنة عمك!

تقدمت متلكئة وقبلتها بدون حرارة وجلست فسَادَ الصمت حتى أوضح صوت الشاي الذي كانت تصبه أمها. وانشغلت الصبيتان بحركات المرأة وهي تمد إليهما كأسيهما وتتناول من طبق دوم بجانبها رغيفا ملفوفا في منديل صوف داكن وتكسره. وخرجت المرأة بالصينية فتبعتها ابنتها تسأل:

ـ من جاء بها ومتى ترحل؟

فردت عليها بغضب:

ـ البغض من صغركما! كأن بينكما إرثا. عسى أن يجازي الله من خلق العطل المدرسية!

أدبرت الصبية وحثت الخطى إلى الخارج، جلست على عتبة الدار وأخذت تقذف الدجاج بالحجارة. ظلت في مكانها حتى تكاثفت العتمة وترددت أصوات الليل. فدخلت وجاءت أمها بعدّة الشاي وطبق الخبز.

في العادة تمضي السهرة تستمع لما تقصه الأم من حكايات أو ذكريات. من هذه الجلسات عرفت الصبية تاريخ أمها، بيد أن أباها ظل بعيدا، لا تعرف عنه سوى دأبه على السهر في القرية. وسألتها أمها السؤال المألوف:

ـ هل أغلقت باب الدار؟

فهزت رأسها بالإيجاب وعادت الأم تقول:

ـ الله هو الذي يحفظنا وليس الباب.

أدخل هذا الكلام القلق على نفس الضيفة فقالت بعد حين:

ـ ألا تخافون؟

وقالت المرأة:

ـ إسألي رقية. هي التي تفتح لأبيها في الظلام.

وانتفشت رقية كالديك الرومي وقالت لأمها:

ـ هل تذكرين ليلة دخل علينا اللصوص؟

فقالت الأم:

ـ رقية هي التي شعرت بهم.

وأكملت رقية تخاطب أمها ولا تقصد إلا ابنة عمها في الحقيقة:

ـ كنت أترقب عودة أبي وأذني على الباب فسمعت خشخشة في الصحن أيقنت أنها خطوات على أوراق كرمة العنب. ونظرت من وراء باب الغرفة فرأيت ضوء عود ثقاب يتقدم فناديت بما فيّ من قوة: "يا حسين!" حتى شق صوتي الظلام ووقف له شعر رأسي. ثم أدبر الضوء مسرعا وعاد السكون فسمعت حفيف الأشجار يحركها الريح.

ناولتها أمها الشاي وأرادت إغلاق آنية السكر فسقط الغطاء وأحدث ضجة انخلع لها ثلاثتهن. وسألت الضيفة:

ـ وهل سمع الحسين؟

فقالت الأم وهي تضحك في صخب:

ـ أي حسين؟ ذاك من اختراع رقية.

وقالت رقية:

ـ مع ذلك سمعت من رد علي قائلا: "واو!"

فقالت أمها:

ـ إنها الريح.

مضى الليل وطرق الباب ففتحت رقية ودخل أبوها ثم أغلقته وعادت بسرعة. ونامت الدار إلا الضيفة. استبد بها الخوف فأحكمت عليها الغطاء وتلت آية الكرسي.

وفي الصباح قالت المرأة لابنتها:

ـ خذي ابنة عمك لجمع الزعتر.

فخرجت الطفلتان في صمت لكن رقية تذكرت الكيس في منتصف الطريق فعادت وتبعتها الضيفة. دخلتا قبوا تحت الدار فتحته رقية بمقبض أخذته من كوة في الجدار وانشغلت بالبحث بينما وقفت ابنة عمها وسط القبو.

على الأرض فحم متراكم وحطب وأكياس مرصوصة وخوابٍ وسلال. وفي غمرة الانشغال انغلق عليهما الباب فقفزتا لدويه وسمعتا صوت المقبض يطوح به خارجا وعمتهما العتمة والصمت.

سارت رقية على طول الجدران تجر قدميها حتى وجدت الباب. ولكن كيف السبيل إلى فتحه بدون مقبض؟ نظرت من ثقب القفل إلى درجات السلم بإمعان وتنصتت فلم تسمع سوى أنفاسها. خبطت الباب ونادت من الثقب بلا فائدة. فجلست على الأرض وأسندت ظهرها إلى الباب وهي تلهث. وعندما انتظمت أنفاسها قامت إلى القفل تعالجه بدبوس شعر حتى تصلبت أصابعها فجلست من جديد. أعملت فكرها جيدا وبسرعة. وخطر لها أنها لو عثرت على حديدة وأدخلتها بين الدفة و الإطار لتمكنت من تكسير القفل، فبدأت تتلمس الطريق وتبحث حتى تعثرت بجسم لدن أمسك بساقها وند عنه صوت مكبوت بين الأنة واللهثة كصوت النائم الذي يرى كابوسا ويفقده الرعب القدرة على الصراخ.

خرت على الأرض وهي تصيح صيحات حادة متلاحقة قبل أن تكتشف أنها ابنة عمها. وحتى بعد الاكتشاف تواصلت نوبة الصياح وأصابت عدواها الضيفة فازدادت حدة بعدما هيجت في نفسيهما الفزع. اختنق القبو بالضجة ولكنه احتواها فلم يتسرب منها إلى الخارج شيء كأنه أحد استوديوهات أيام الحرب الإذاعية.

ومضت اللحظة الرهيبة فتوقف الصراخ وخلف شهيقا وزفيرا ظل يتباعد حتى انقطع. ولو أضيء القبو لتبين أن الصبيتين في صفرة الموت وأنهما ترتعشان كالأوراق الجافة في يد الريح.

مرت الأزمة فخمدتا وبخاطرهما نفس الفكرة، رقية بين بطولات الأمس وواقع اليوم. ارتاحت لها الضيفة ولعلها ابتسمت في الظلام وأصابت رقية إصابة قاتلة. بفرقعة أصبع ذهب الزهو كله. هل كانت شجاعتها أوهاما وأضغاث أحلام؟ وداخلها الشك حتى قالت بلا شعور:

ـ قطع الله الزعتر!

ألح عليها الحنق وبحثت عما تنشغل به فطفت على سطح الذكريات صورة الغولة. سمعت حكاياتها من أمها في الليالي الباردة. كانت تجلس ملتصقة بها، متدثرة بلحاف الصوف، تصغي وهي تغالب النوم حتى يغلبها فتنام على صورتها المريعة والتي توضحت عندما بدأت تخرج لها كلما أكثرت الشغب.

جدتها هي التي كانت ترسل خالها ليحضرها. وكانت تدخل دخولا رسميا تحفه الرهبة وهي تتمايل في مشيتها

بكتلتها الهائلة. كان لها وجه أسود، تذكر جيدا، ورأس ضخم وقرون وجسد يكسوه الشعر وصوت مبحوح.

كانت في كل مرة تحتمي بجدتها وركبتاها تصطكان وقلبها يدقّ حتى يوشك أن يصدع صدرها. وكانت الجدة تتوسط لها عندها حتى تصرفها بالتي هي أحسن.

على أنها إلى اليوم لا تفهم لماذا كان خالها يغلق عليه القبو مدة طويلة وحين يفتح وتخرج منه الغولة لا يكون معها ولا لماذا كان يغلق القبو بعدما تنصرف فلا يظهر الخال إلا بعد حين.

سيطرت عليها الذكرى حتى شعرت بأنفاس الغولة تحت أذنها فجمدت من الخوف، في حين اشتدت وطأة الجوع على الضيفة فقامت إلى الباب وحاولت سحبه بوضع أصابعها في الشق ولكنها لم تمسك إلا حرف الدفة. شدت أناملها عليها ثم جذبت ولكن أصابعها انفلتت وظل الباب في مكانه.

ودفعها الجوع إلى البحث فثابرت عليه. عثرت على خابية نزعت عنها الخرقة التي تغطي فوهتها وغمست يدها

في سائل أدركت أنه زيت زيتون. مسحت يدها بالخرقة ودعتها تسقط على الأرض وواصلت البحث حتى اصطدمت بكيس.

لم تتمكن من فك الدوم المحكم على فوهتها ولكنها وجدت في إحداها ثقبا أوسعته وأخرجت منه حبّة حمص فتنفست في ارتياح.

تمددت على قفاها منهكة وبدأت تأكل الحمص فلم تدر كيف انزلقت واحدة واستقرت في خيشومها. استوت قاعدة على الفور وتمخطت ولكن الحمصة كانت مثبتة في مكانها. ملأها الخوف فلم تدر إلا وهي تنادي رقية. وبحثت رقية حتى أمسكت بها. وجدتها تبكي في صمت فسألتها:

ـ ما بك؟

قالت:

ـ حمصة سدت خيشومي.

جست رقية جناحي أنفها حتي وجدت مكان الحمصة وقالت:

ـ ستنبت لك شجرة في أنفك. لا تصدقينني؟ المعلمة

قالت لنا إن الإنسان تراب. والجمل نبت له بستان في ظهره. ألم تسمعي الحكاية؟

ـ لا أحد يريد سماع حكاياتك.

ـ أنت التي ناديتني.

فانقضت الضيفة على رقية كهرة غاضبة وتصارعتا في الظلام حتى أنهكتا قواهما. وعندما انتهت المعركة سقطتا على الأرض وساد صمت تخلله صوت الضيفة تندب حظها في طبقة صوتية رقيقة تستدر بها الدمع، ثم فتح الباب وغمر القبو نور بطارية أعشى عيونهما.

ـ أيتها التعيستان!

قالتها امرأة وتنفست الصعداء وسمعتا سطلا معدنيا يصطك بالبلاط وعادت المرأة تقول:

ـ قلبنا الدنيا عليكما. لم ندع مكانا على وجه الأرض، حتى المنادي أطلقناه في القرية. وأنتما هنا!

نسيت الفحم وخرجت بهما وقد تمزقت ثيابهما وانتفش شعرهما وخطت الدموع على خدودهما المتسخة رسوما واضحة.

وجدتا الظلام قد حل فتمسكتا بالمرأة متفاديتين الضوء

كأنهما من طيور الليل. ألفتا البيت غاصا بالزائرات والأم معصوبة الرأس. وجاءت بهما المرأة وهي تعلن:

ـ ها هما! ها هما! وجدتهما!

وقالت امرأة:

ـ هل تريدين قتل أمك يا رقية؟

جيئتا بالطعام وهما على تلك الحال المزرية ولكن الأب دخل وهم بضرب ابنته فحالت النسوة بينهما. بعد ذلك طرح مشكل الحمصة وكثرت الاقتراحات حتى قال الأب مغضبا:

ـ هاتوها! سآخذها إلى المستوصف!

امتقعت الضيفة وقالت امرأة:

ـ دعوني أتصرف.

أجلسوها بين يديها وتوجهت إليهما الأنظار. أخرجت علبة صغيرة فيها مسحوق ذرت منه على ظهر يدها وأمرت الطفلة باستنشاقه فقالت إحدى النساء:

ـ حشيشة العطاس؟

وضحكن في جلبة. تمنعت الطفلة، لكن المرأة حثتها بصرامة فاستنشقت على كره وانتابتها نوبة عطاس لفظ أنفها

على إثرها الحمصة. وعاودت النساء الضحك في حين أجهشت هي مرددة:

ـ أريد أن أذهب إلى بيتنا.

فقال عمها لزوجته:

ـ اجمعي أشياءها! سأرسل بها في السيارة العمومية التي تغادر عند الفجر.

1978

مسز أوغرايدي



كانت تشتغل في مكتب السياحة المغربي في لندن. تستقبل الزوار وتزودهم بالكتيبات والخرائط والمعلومات. . . وكنت ألمح منها وجها جامدا، لا ينم عن شيء وأراها وهي تجيب على أسئلة الناس بصرامة فأتخيل أنها جاءت من ثكنة عسكرية.

كانت تتحاشى المغاربة، إلا أنها تخالط يهود المغرب ولا تحب العرب. حتى زملاؤها كان الجفاف يطبع علاقتها بهم. وكانت في حركاتها وسكناتها لمحات من المزاج الفرنسي. كانت تنطق الإنجليزية بلكنة فرنسية والفرنسية بلهجة بروفانسية وتفهم العربية، قليلا، ولكنها تستنكف أن تتكلمها. وكانت تتوفر على معلوات وظيفية عن المغرب فاستنتجت من كل ذلك أنها فرنسية تنتسب إلى فريق المعمرين الذين ملكتهم فرنسا أيام الاستعمار، وبثمن بخس،

أراضي زراعية نزعتها من الفلاحين، وهم الذين ناصبوا المغرب العداء بعدما استُرجعت منهم تلك الأراضى ورُدّت إلى أصحابها. وكاد فضولي يقف عند هذا الحد لولا اكتشافي اسمها. كانت تدعى فاطمة العلوي. مغربية إذن!

كانت معها في المكتب نفسه عربية أخرى من فلسطين، ربطتني بها تلك الوشيجة التي تكاد تكون أرومة بين العرب، والتي سألوني عنها فلم أعرف كيف أشرحها لأنني لم أجد عندهم ما أقيسه بها، لا المذهب الأنجليكاني ولا الأنجلوسكسونية ولا الكمونولث فكنت أخلص من المسألة موقنة أنها تتعدى فهمهم وأنهم لن يدركوا لماذا تكون فلسطين قضية كل العرب.

المهم أنني كنت، من حين لآخر، أمر على صديقتي الفلسطينية ونذهب للغداء في أحد مطاعم منطقة ريجانت ستريت، وأنتهز الفرصة لسؤالها عن زميلتها المغربية فعرفت أن أباها من أثرياء الدارالبيضاء وأمها من فلاحي الجنوب الفرنسي. قالت صديقتي:

ـ فاطمة حالة شاذة.

ـ بل يوجد منها الآلاف.

ـ لماذا؟

ـ لأن أعدادا هائلة من المغاربة تعيش في فرنسا.

ـ وتعود بالزوجات؟

ـ المثقفون، أما العمال فيعودون بالعملة الصعبة ويبحثون عن الزوجة في قرى المغرب النائية ورؤوس جباله.

ـ لا أتصور أن يعيش الإنسان في وطنه ولا يعرف لغته ولا يعلق بشخصه شيء من ثقافة هذا الوطن.

ـ لأنه يعيش داخل حلقة مغلقة. ما لا أفهمه أنا أن تتزوج الفرنسية من المغرب وتقضي بقية عمرها فيه ولا تتعلم حرفا من لغته، بينما أي وافد على باريس لا يمر عليه الحول إلا وقد بدأ يتعتع بالفرنسية.

ـ عقلية استعمارية ستزول.

ـ ويبقى أن والد فاطمة أعطى البلاد مواطنة لا تعجب بها كثيرا.

ـ ثقلت موازين الأم، فعلاقتها بابنتها علاقة لحم ودم... على أن الوالد شديد التشبث بعقيدته.

ـ كيف؟

ـ يرفض أن تتزوج فاطمة "بوي فراند إنجليزي: تعيش معه، ويهددها بقطع علاقته بها نهائيا إن هي تزوجته.

ـ وبقية الأسرة؟

ـ ليس هناك سوى الأم والأخ الذي يقيم في فرنسا، وكلاهما يقف إلى جانب فاطمة.

وعندما مررت بصديقتي في الطريق إلى المطعم مرة أخرى سمعت من يطلب مسز أوغرايدي، ولم تكن مسز أوغرايدي هذه سوى فاطمة العلوي.

1978

التذمر



في بناية حكومية بالدار البيضاء خرج الوزير من قاعة الاجتماعات فأوقفه أحد الفراشين. وتفرس في وجهه فعرفه وتعانقا وكلاهما يسأل عن أحوال الثاني ويلومه على قطع الرحم حتى قال الوزير:

ـ هيا بنا إلى بيتك إذن!

غادرا على الفور وركبا سيارة فخمة فسأل الوزير عن الأحوال مرة أخرى وقال الفراش:

ـ الماهية قليلة والأولاد مطالبهم لا تنتهي والغلاء لا حد له ولا أحد يشعر بنا.

وقال الوزير في عتاب:

ـ لو أنك لم تترك المدرسة!

عَبَسَ الفراش وقال بمرارة:

ـ نصيب!

وخيم الصمت مدة أدرك فيها الوزير خطأه وندم عليه وقال الفراش لنفسه وهو ينظر أمامه عبر زجاج واجهة السيارة: "نصيب يا قريبي يرفعك إلى الوزارة ويشدني إلى الحذاء الحكومي ولم تكن سوى بائس من البؤساء."

ووصلا ضاحية بنت فيها الدولة مساكن شعبية فأوقف الوزير السيارة أمام بيت صغير على إرشادات الفراش. ودخلا حجرة فجلس الوزير متربعا في صمت والآخر يسترق إليه النظر ويجده، رغم البدلة الرفيعة، منسجما مع المكان، ينظر إلى بقع في الحصير تآكلت وبدا من خلالها إسمنت البلاط ويتصبب عرقا من الحر وركود الجو.

في الخارج ترامى الخلاء من خلال باب الدار المفتوح وظهر ما يغطيه من نفايات وآثار عشش منقرضة. وفي الداخل جرى أبناء الفرّاش بعضهم في أعقاب بعض فبدوا للوزير أكثر من عددهم الحقيقي واختلطوا عليه حتى دارت به الدار الصغيرة ثم سمع الفراش يقول:

ـ كان بودي أن يكون البيت خليقا بالمقام.

لم يدر كيف يرد وقد شعر بما يعقده الفرّاش في نفسه من مقارنة. وانشغل هذا الأخير بصب الشاي في الكؤوس الرخيصة ثم قال:

ـ بعض الناس محكوم عليهم بالأعمال الحقيرة.

فقال في حرج:

ـ العمل الشريف ليس حقيرا.

ضغط الفرّاش بعصبية بسبابته وإبهامه على شاربه الغزير وأطبق شفتيه فعاد الوزير يقول في تودد:

ـ سنجد لك عملا أفضل.

وقام منصرفا.

وجد السيارة مطوقة بكوكبة من الأطفال، ولمّا رأوه تفرقوا عنها. وعندما هم بفتحها لاحظ أنهم قد كتبوا على بابها بآلة حادة "يحيا المغرب" فأعطى الفراش عنوانه وأوصاه بالاتصال به وانطلق.

بإلحاح من زوجته سافر الفراش إلى الوزير في الرباط. وصل البيت وبُهِتَ. بناية أوروبية في مرجة خضراء يكتنفها الورد وشجيرات صفصاف نحيلة. تردد ثم كبس الزر فلم يسمع إلا أنفاسه لشدة السكون. وفتح خادم قاده حتى دخلا

بهوا واسعا لا تخطر محتوياته على بال فجال بعينيه مبهورا وعلق بذهنه أثر هذه النظرة الأولى إلى الأبد ثم تساءل عن نوع الخشب وأصل البسط والتحف والثريات واللوحات والمفروشات وعن ثمنها وضحك في سره من جهله الفاحش بعدما أدرك أنه لم يعرف إلا الورد.

ودخل الوزير داعيا إياه للجلوس وأخبره أنه وجد له عملا كمسؤول عن إدارة ضيعة مسترجعة في ناحية الدار البيضاء. مسؤول؟ ضيعة؟ ناحية الدار البيضاء؟ قال بصوت متقطع:

ـ ولكنني لا أفقه في الفلاحة.

فقال الوزير:

ـ لن تزيد على الإشراف وأداء الأجور. سيتضاعف دخلك وتكون معفى من فواتير الكراء والماء والكهرباء. ستعيش بين الماء والخضرة والهواء النقي. هه! هل رضيت؟

لكن الفراش كان يتصور جماعة من فلاحي دكالة أو الشاوية ويتصور نفسه مسؤولا عنهم فلم يرد على السؤال وإنما وقف مودعا، متعللا بقرب موعد القطار. وأكد عليه الوزير أن يذهب لتسلم العمل في مستهل الشهر، وهذا ما زاده انقباضا فخرج مسرعا يتكلف الابتسام.

حل أول الشهر فأخرج الفراش دراجته النارية كعادته وانطلق بها في صخب فلم تلبث أن ابتلعته حركة المرور. وفي اليوم نفسه توصل الوزير منه بهذه البرقية: "لا أستطيع قبول عرضك. يخلق مصاعب في تعليم الأولاد. شكرا على كل حال." قرأها واستبد به الغضب ثم قال:

ـ لا فائدة ستموت كما عشت في البؤس. (وبصوت خافت) فالح في الحقد على الوضع والتذمر!

نفخ ممتعضا فقال مساعده وهو يجهل صلة القرابة بينهما:

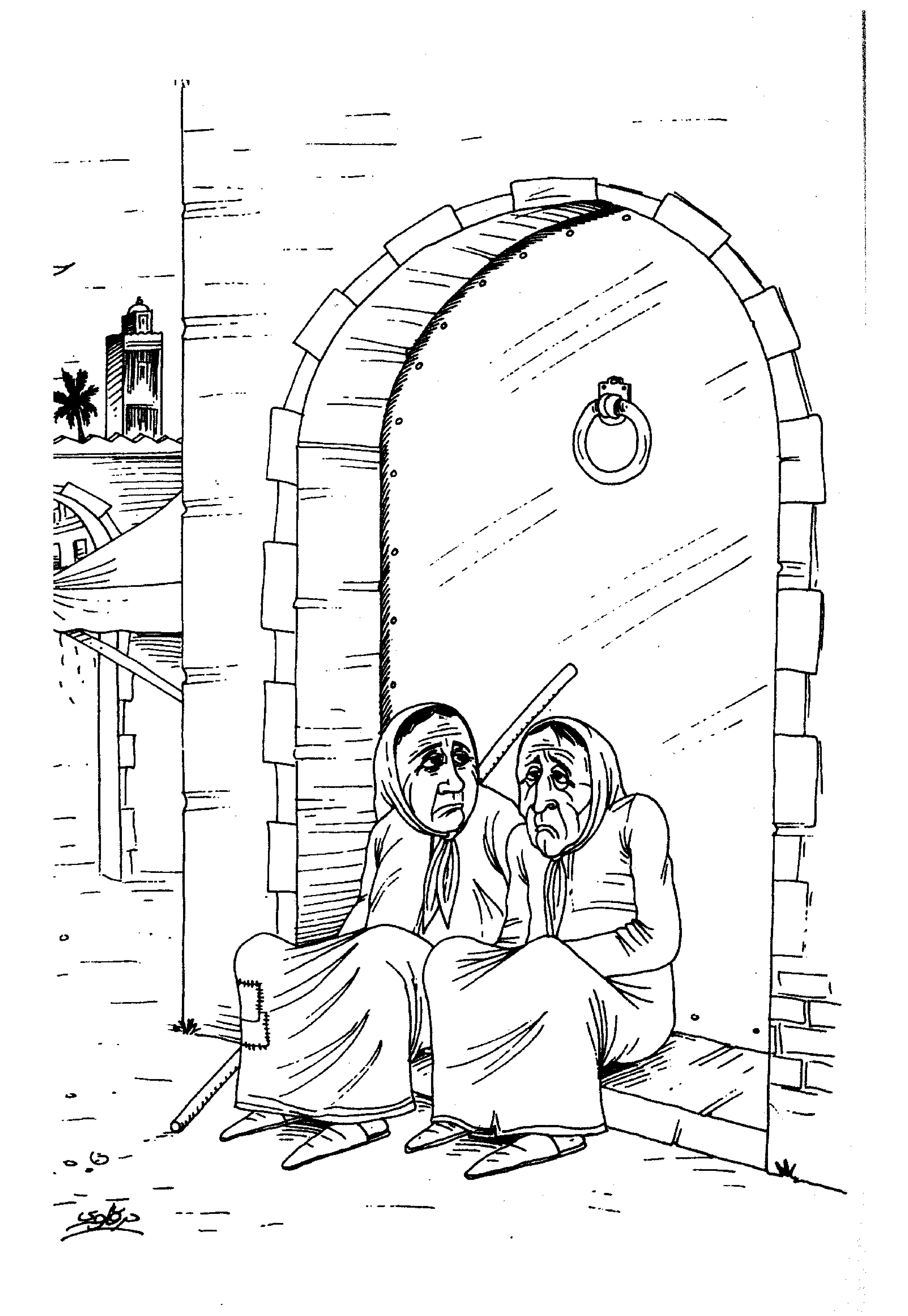
ـ بعض الناس لم يولدوا لتحمل المسؤولية.

وعصر الوزير البرقية في قبضته حتى صارت كتلة صغيرة متماسكة ثم ضربها بطرف إبهامه بخفة فهوت في سلة المهملات.

1978



الشقيقتان



طوفان من البشر أغرق السويقة ليلة رمضان، كأن الرباط المربوطة إلى مكاتبها قد شغلتها مهام الحكومة عن التزود بعتاد الشهر الكريم إلى أن ظهر الهلال.

مشتا بخطى الشيخوخة، تغالبان التيار وتتأبط إحداهما رزمة. الأولى ربعة، في قسماتها بقايا جمال الشباب، قوية نسبيا لذا سبقت رفيقتها إلى زقاق جانبي وجلست على عتبة بيت من بيوته. والأخرى فارعة، نحيفة إلى حد الهزال، عكر المرض لونها وأخمد كل ما فيها إلا عينيها.

جلستا على العتبة في حرج حتى لف الزقاق غبش أعقاب النهار وأضيئت دكاكين السويقة فعادتا تدبان كسلحفتين. جاوزتا باب الجامع وانحرفتا في زقاق ثم انحنت الأولى وأخرجت من جيبها مفتاحا كبيرا عالجت به قفل باب أخضر مشقوق، دفعته فأزّ في الظلام ودخلت تتلمّس طريقها

حتى وجدت زر الكهرباء. أضيء البيت فظهرت غرفتان متقابلتان وفناء مرصع بالفسيفساء وبئر عند حافتها نبتات عابقة في صفائح تحمل علامة زيت كريستال.

دخلتا إحدى الحجرتين، ثمّ خرجت الأولى، وبقيت الأخرى تجول بعينيها. الستار الرهيف المنمق والسجاد التركي العتيق والموائد المنقوشة، المفروشة بحشايا الصوف، والمخمل الأحمر الذي يغلف الحشايا والوسائد، والسريران المتقابلان والمرتفعان عما سواهما. تنهدت ونزلت من عينيها الواسعتين دموع داهمتها فقامت. لمحت في صدر الغرفة صورة كبيرة لرجل وجيه يلبس الطربوش وأشاحت بعنف كأن الصورة لسعت نظرها.

صلت في الغرفة الثانية ومكثت بها، وحين دعتها المرأة الأولى للعشاء قالت باقتضاب: "لنتعشّ هنا!"

أول كلمة كسرت الصمت. ووضع الطعام فعاد قاطعا كحد السيف. جلستا وجها لوجه تمدان أيديهما وتتفاديان أن تلتقي نظراتهما. وعندما انتهتا من العشاء قالت الثانية:

ـ لا توقظيني للسحور.

ولكن حين جاء صوت النفير لم تكن قد نامت بعد.

ورفع أذان الفجر. انتشر من صومعة الجامع مع أنفاس الصباح الجديد فقامت العجوزان للصلاة. صلتا جنبا لجنب ثم دعت كل منهما من جهتها. قالت الأولى:

ـ رب، هذه شقيقتي لا أحد لها سواي. اكتب لي أن أكفلها حتى تموت... في بيتي!

وقالت الثانية بنفس الصدق والحرارة:

ـ رب، بحق هذا الشهر العظيم ومن سيصومونه في مشارق الأرض ومغاربها، لا تجعل موتي في بيتها!

جاءت أيام رمضان بجو لطيف. أشربت النفوس بالزهد وحلاوة العبادة حتى أعطتها الشعور بالارتواء من البهجة، كأن المرء مستلق على قفاه في الحقول في يوم من أيام مايو وعبق الأزهار وزرقة السماء تمتزج بنفسه وتزيل عنها الشوائب فتصفو وتخف حتى تصبح كالهواء وتحلق في الفضاء.

وقد استمتعت العجوز المريضة بصفو رمضان. تعودت أن تجلس عند البئر في الفناء المفتوح على السماء فتنبسط الفسيفساء المغسولة وتلمع ويعم الصمت وتتضح الأصوات الآتية من الخارج ومن السطوح المجاورة وزقزقة الخطاطيف

التي بنت أعشاشها في قواعد العوارض الخشبية تحت سقيفة القرميد الأخضر فتستسلم لجو الربيع المخدر وللهدوء. تسترخي وتفرغ نفسها. وتحط الخطاطيف بالقرب منها، تنط مثل كرة المضرب وتندس بين علب النباتات المسقية ساحبة ذيولها الطويلة المشقوقة. وتعد المرأة الأولى مائدة الإفطار ثم يدوي المدفع في الهضبة القريبة المطلة على البحر فيتعالى في الزقاق تهليل الأطفال ويسمع أذان المغرب ويدوم مدة يعم بعدها السكون.

انصرمت أيام رمضان كعرى نسيج محبوك والبيت غارق في الصمت. وبدت المرأة الأولى في غاية التوتر. تراكم عليها الضغط ووصل حده فأكثرت من الدعاء على الخطاطيف بينما أطرقت العجوز المريضة مرتفقة ركبتيها في موقعها عند البئر. وحين شنعت الأولى بالجحود والجاحدين رفعت رأسها وفتحت فمها ولعلها اصفرت تحت لونها المخطوف. ومضى وقت قبل أن تخاطب نفسها بصوت عال:

ـ طول عمرك يخونك التدبير حتى تفوز العاهرات.

اهتاجت الأولى وهبت عليها حتى خافت أن تضربها لكنها ارتدت قائلة بخنوع:

ـ مكتوب!

بعثت في العجوز المريضة قوة عجيبة وصرخت:

ـ فلتغلق المحاكم إذن وليُلغ يوم الحساب ما دام كل شيء قضاء وقدر.

وردت الأولى بصوت أكثر خنوعا:

ـ الطلاق سنته الشريعة وقد كان سيطلقك حتى ولو لم يتزوجني.

استشاطت العجوز المريضة وقالت بصوت أعلى:

ـ ما أنت إلا حيوان حقير يزحف على بطنه.

بينما واصلت الأولى كأنها لم تسمع السبة:

ـ سأقوم بواجبي. لقد جئت بك من المستشفى وسأكفلك حتى تموتين... في بيتي، والله غفور رحيم.

فطنت العجوز المريضة بعد لأي، فقفزت ولم تعقب ولكن عندما انشغلت الأولى بإعداد الإفطار في المطبخ تسللت خارج الدار ووقفت تلبس جلبابها في الزقاق ثم سارت.

السويقة ليلة العيد قَرِيَة نمل. كأنها وإياها متواعدتان

في الليالي الكبيرة. مشت كالشبح تقول لنفسها وتشعر بالأسى:

ـ تريد محو الوزر بموتي في بيتها؟! وأن تخرج جثتي مع زكاة الفطر؟

وضرب المدفع ثم قلت السابلة حتى سمعت وقع أقدامها في الطريق الخالية ثم عبرت إلى محطة المسافرين وطلبت بطاقة إلى القنيطرة.

وبعد ظهر يوم العيد طُرق الباب الأخضر المشقوق وفتحت المرأة الأولى فمُدت لها برقية ثم سمعت من يقرأ لها بعد الإسم والعنوان "أختك التحقت بالرفيق الأعلى." فانقلبت وعلى وجهها ابتسامة بلهاء جمدت عليه.

1978

طلاق



عانى الشاب النحيل من ترقب مشحون بالقلق، منعه من المشاركة في أحاديث زملائه التي تخوض في مواضيع الساعة. نقر بعقب قلمه على المكتب ونظر في ساعته ثم رمى القلم وصك يديه في قبضة أسند عليها رأسه قبل أن يهبّ ويغادر المكتب فيقول أحد الزملاء:

ـ إنه ذاهب لمعرفة الرد على طلب ترسيمه.

عاد الشاب النحيل مربد العينين ففهم زملاؤه النتيجة ولم يسألوه. لازم مقعده حتى أزف موعد الخروج فانصرف وهو يُحْدِثُ في الردهة وقعا متوترا كأنفاسه.

في الشارع أطلق لدراجته النارية العنان وسار بها بسرعة جنونية غير عابئ بإشارات المرور. جاوز سيارة من يمينها، وعبر الطريق أمامها ليجاوز حافلة من جهتها اليسرى كما

يفعل أبطال التزحلق اللولبي ولكنها انعطفت يسارا ففرمل بقوة طرحته في وسط الطريق. توقفت السيارة التي جاوزها عند رأسه ونزل سائقها يلوح ويحتج ويعلن أن أمن الطريق لا يضمنه إلا حظر الدراجات بنوعيها.

أصابته جروح بالغة وذهب موضع الركبة اليمنى من سرواله كأنه تبخر في الهواء. وتحامل على الوقوف كي لا يزيد في تعطيل حركة المرور. شعر بغصة مرة ممزوجة بالقهر تسد حلقه وسار على الرصيف، يجر دراجته وينشج كالأطفال.

وصل إلى البيت عند الغروب فجاءته زوجته بالقطن وصبغة اليود وانسحبت في صمت لتلازم أطفالها في الحجرة المجاورة مع أنهم يلبدون بالبداهة كلما عاد أبوهم غاضبا.

مسح الجرح الطري بالدواء وتألم حتى ارتعشت عضلات وجهه فزم شفتيه وأطبق جفنيه ولم ينبس، ثم تمدد على فرشة ملاصقة للبلاط العاري كأنه جثة. ساد الصمت في البيت كأنما لا يسكنه أحد وتكاثفت العتمة من طرف خفي حتى اقتحم عليه أخوه الحجرة وأنار الكهرباء ونظر إلى ساقه التي انحسر السروال عنها وتنفس في ارتياح قائلا:

ـ هكذا لا تعدو الساق "المكسورة" أن تكون ركبة مجرودة. يهولون حتى يمسخون الحقيقة! ستذهب تلك الدراجة بحياتك!

لم يرد عليه فتفرس في وجهه وأدرك ما يعانيه من هبوط معنوي فسكت بدوره حتى سمعه يقول:

ـ ضاقت الدنيا!

ـ حادثة سير تهد كيانك؟

ـ لا دخل للحادثة.

ـ وماذا إذن؟

ـ الأحوال، فقط.

ـ الآن تكتشف ذلك؟

رماه بنظرة غاضبة وقال:

ـ لا، اكتشفته يوم رمانا أبوك وانشغل بسعادته.

ـ ها نحن نعود إلى الأسطوانة الأزلية. انس، بحق الأخوة. لقد بلغت سن الرشد من زمان وسقطت كفالتك عن أبيك.

ـ لماذا تركت المدرسة إذن؟ لماذا تزوجت امرأة مشردة عثرت عليها في الطريق؟ أنا رجل فاشل بكل المقاييس.

سرى غضبه إلى أخيه فرد محتدا:

ـ وهل أرغمك أحد؟

ـ أرغمني الفقر. أنت تدري وتتجاهل.

وسكتا فعاد الصمت حتى ترامى إليهما صوت آذان العشاء. تنصت الشاب النحيل إليه فاحتواه وبدد غضبه، وحين سكت قال بهدوء:

ـ لم أكن أنام في حجرتنا من شدة البرد وفي الفصل كان الدفء يسري إلى جسمي فيكبس على النوم.

لاح على ملامح أخيه ظل ابتسامة حزينة وواصل هو:

ـ المدرسة! أية مدرسة للجائعين؟ هل تعرف كم مرة تزوج أبوك وكم خلف لك من الإخوة؟ لعلنا لن نعرف أبدا. أمثاله ممن ينتجون المشردين وبال على الأمة. يجب القضاء عليهم.

ـ ما أشد ضغينتك يا أخي!

واصل خيط أفكاره وامتزجت نظرته السوداء بالانكسار:

ـ لولا الأعياد ما رأيناه. هل تذكر يوم أصرّ على أن أدله على أبي؟ كنا نلعب الكرة عندما جاء بكبش العيد وقذفتها

قذفة مميتة أصابته في الأنف، ولو كنت قد صوّبتها لأخطأت الهدف.

ضحك بعصبية ووجد صعوبة في مواصلة الكلام فتوقف ثم قال بصوت متهدج:

ـ أمسك بخناقي حتى رأيت الموت وقال لي وأنفه ينزف وعينه في عيني: "أرني أباك أيها الوغد!" وللرجال الذين هبوا لإستخلاصي من بين يديه: "لا أتركه حتى أرى الكلب الذي أنجبه. فالحون في تعمير شوارع الدولة بقطاع الطرق!" فقال له أحد الرجال: "دعه! ستقتله! إنه ابنك!"

بلغ به التأثر مبلغا كبيرا وقال أخوه وصوته يقطر أسى:

ـ أكلما اجتمعنا رجعت إلى الماضي تنبش فيه؟ نفسيتك متدهورة.

ـ العالم هو المتدهور. ماذا حدث له؟

ومر وقت وضحت فيه أنفاسهما ولاحت على أثره على وجه الشاب النحيل ابتسامة وقال:

ـ هل تذكر حكاية الدراجة؟ سلط علي الشيطان، لعنه الله، وسواسها.

ـ تلصق فعلتك الآن بالشيطان؟

ـ المهم أنني بدأت أنام وأصحو على ذكر الدراجة حتى خافت علي أمي رحمها الله، فباعت كل البطانيات التي نملكها واشترتها لي. لو لم تفعل لقتلني الكمد. سعادة الأطفال مسألة حاسمة. وقد تقضي عليها أشياء كثيرة منها الطلاق.

ـ تنطق بالحكمة.

ـ أنطق بالتجربة. طلاق أمي ترك في نفسي نقوشا لن تزول.

ونظر أخوه إلى ساعته وتململ قائلا:

ـ لا أستطيع السهر أكثر من هذا. عملي يبدأ في السادسة صباحا كما تعرف.

وخرج وصفق الباب فعاد السكون للبيت كأنه غير مسكون. وفي الصباح استيقظ الشاب النحيل وبدأ يصرخ:

ـ ما هذه الياقة؟ أأذهب بها إلى الإدارة أو أكتري من يكويها أو ألقي بنفسي في البحر؟

احتمى الأطفال بأمهم ووقفت هي كالمتهمة فكور

القميص وضرب به على وجهها. امتقعت وارتعدت وصرخت في مثل صراخه:

ـ لا تصب فئ فشلك. لا تزد ذلك على سوءِ المأكل والملبس. هل تظن سكوتي خوفا من ضياع نعمتك؟ أنا لا أصبر إلا من أجل الأولاد وإلا فالعمل في بيوت الناس خير من هذه المعيشة.

ـ الأولاد؟ لا تحسبي أنهم يحمونك. حذارِ أن تحسبي ذلك!

هددها تأديبا لها على جسارتها بعدما أصابه تشهيرها بمعيشته بجرح في كرامته أشعره بالخزي. وزودها هي التمرد بالجرأة فردت على تهديده بسبة أدهى، زادت الطين بلة:

ـ وماذا بوسعك أن تفعل؟ تلقي بأولادك في الشارع؟ إنها شيمتكم أبا عن جد.

تنامى غضبه بسرعة فائقة وقال وهو يلبس جلبابه في صحن الدار:

ـ املئي صدورهم عليَّ! أنا أعرفك.

هرع إلى الباب مضطربا و توقف واستدار وقال لها:

ـ سيأتيك الخبر.

ومضى فهبت في أثره تقول له من الباب وقد أصبح في رأس الدرب:

ـ ابذل قصارى ما عندك ولا تقصر. إياك أن تقصر!

سار مهرولا وصدره يعتمل بالغضب. ووصل إلى مكتب العدول وهو لا يدري كيف وصل كأنه يتصرف في حالة غيبوبة.

المكتب دكان من الصفيح، بنته الحكومة مع المساكن الاقتصادية في نطاق التصميم الخماسي. تحتله تماما طاولتان عفاهما البلى ومصطبة عليها حصير، ووراء الطاولتين عدلان. دعاه أحدهما للجلوس بإلحاح كأنه خاف أن يغير رأيه وبادره قبل أن يستقر:

ـ تريد أن تطلق يا ولدي؟

فهز رأسه بالإيجاب وتأهب العدل للكتابة قائلا:

ـ تلزمنا الأسماء وتاريخ ومكان عقد القران. ليس هناك سعر. الأمر متروك لأريحية الزبون.

لمعت في ذهن الشاب النحيل صورة حفار القبور وتعجب أن يكون في مصائب الناس القوت اليومي لبعض

الناس. استحوذت عليه الفكرة فعاد العدل يقول:

ـ الأسماء والتاريخ والمكان.

وذكرها له فتلقفها وهو يكتب مباشرة ويقرأ ما يكتبه كأنه يمليه على نفسه. وانتهى فمد له الشاب النحيل ورقة مالية من فئة خمسين درهما وانصرف.

1978

عشاء غال



في غمرة العمل استقبلت الموظفة زائرة جديدة، كهلة في مثل سنها، ليست ذات جمال ولكنها تعوض ذلك بما تغدقه على نفسها من عناية. لباسها المستورد يدل على ثرائها. جلست وهي تقول:

ـ سمعت استجوابك في الإذاعة وعرفتك. كنا معا في الثانوية.

ذكرتها الموظفة واستحضرت بسرعة صورتها الأولى. لم تكن على هذا القدر من الوجاهة. دققت النظر في وجهها فرأت ما خلفته معاهد التجميل على صفحته من نصاعة وما يغشاه من مستحضرات من النوع الفاخر. ومسحت الزائرة على شعرها فلمحت في أصابعها فصوصا تبرق وبدا وجهها كصور العارضات التي تنشرها المجلات الغربية للدعاية لمواد التجميل فسألتها:

ـ ترى فيما تشتغلين؟

فردت عليها وهي تعتدل في جلستها وتضع ساقا على ساق:

ـ أدير مكتبا للتأمين.

ورن جرس المهتف فقطع الحديث. ورفعت الموظفة صوتها وهي تخاطب شخصا وتتفق معه ثم وضعتها وتوجهت إلى الزائرة:

ـ إنه سمسار. لقد أعياني البحث عن شقة.

فقالت الزائرة:

ـ ما رأيك في أن أجد لك حلا؟ لدي شقق فارغة.

سألتها الموظفة وقد ازدادت حيرة:

ـ هل تعملين في العقار أيضا؟

ـ لا. إنها مجرد عمارة أملكها.

ثم غادرت بعدما اتفقت مع الموظفة على موعد لزيارة الشقق.

والتقت المرأتان في الموعد واتجهتا إلى المكان المقصود وهو بناية مقسمة إلى مرافق تتضمن شققا ومحلات تجارية عصرية.

إثر ذلك تلقت الموظفة وزوجها من الزائرة دعوة للعشاء بادرا لتلبيتها. وفي الطريق توقف الزوج للتزود بالبنزين ثم استدل من عامل المحطة على العنوان وهو يضع بقية الثمن بين الأوراق المالية في محفظته ويدسها في جيب سترته الداخلي.

البيت مستوحى من العمارة الأوربية بمدخنات وسقوف محدودبة مكسوة بالقرميد الأحمر وإن كان جو الرباط لا يحتاج لذلك وهو من الداخل متحف.

استقبلتهما صاحبته عند الباب ورجت الزوج أن يتخلص من سترته نظرا لحرارة الجو فاعتذر شاكرا ولكنها تمسكت برأيها قائلة:

ـ ليس هناك سوى أصدقاء سأعتمد عليكم بالمناسبة لإيصالهم.

وهمّ بالدخول فأمسكت بسِترته وشرعت تكشطها وتقول:

ـ بدون بروتوكول! البيت بيتك!

وجدا في الداخل رب البيت وزوجين آخرين ولاحظ الزوج أن الرجلين قد تجردا مثله من سِترتيهما. وسرعان ما

ارتفعت الكلفة وربة البيت تتحرك كالفراشة وتشع من حولها الحبور.

وانتهت السهرة فركب الضيوف سيارة الموظفة وزوجها واحتكر الرجلان الحديث وخصا به المضيفة:

ـ مرونة ولياقة ولباقة!

ـ وشدة عارضة! هل رأيت كيف يحضرها الجواب والرد والتعقيب والنكتة؟

ـ لا غرابة أن تكون ناجحة في دنيا المال والأعمال.

وهكذا مضيا يتراشقان إطراءها وجو السهرة ما يزال يستحوذ عليهما بينما لاذت المرأتان بالصمت في المقعد الخلفي. وهم زوج الموظفة بالتدخين فوجد أن سجائره نفذت وانتبه الآخر إلى أنه نسي علبته هناك فقالت زوجته وهي تلحظه شزرا:

ـ الحمد لله أنك لم تنس نفسك!

أوقف زوج الموظفة السيارة أمام محل لبيع السجائر وأخرج محفظته فوجد الأوراق المالية التي كانت بها قد اختفت وقالت زوجته:

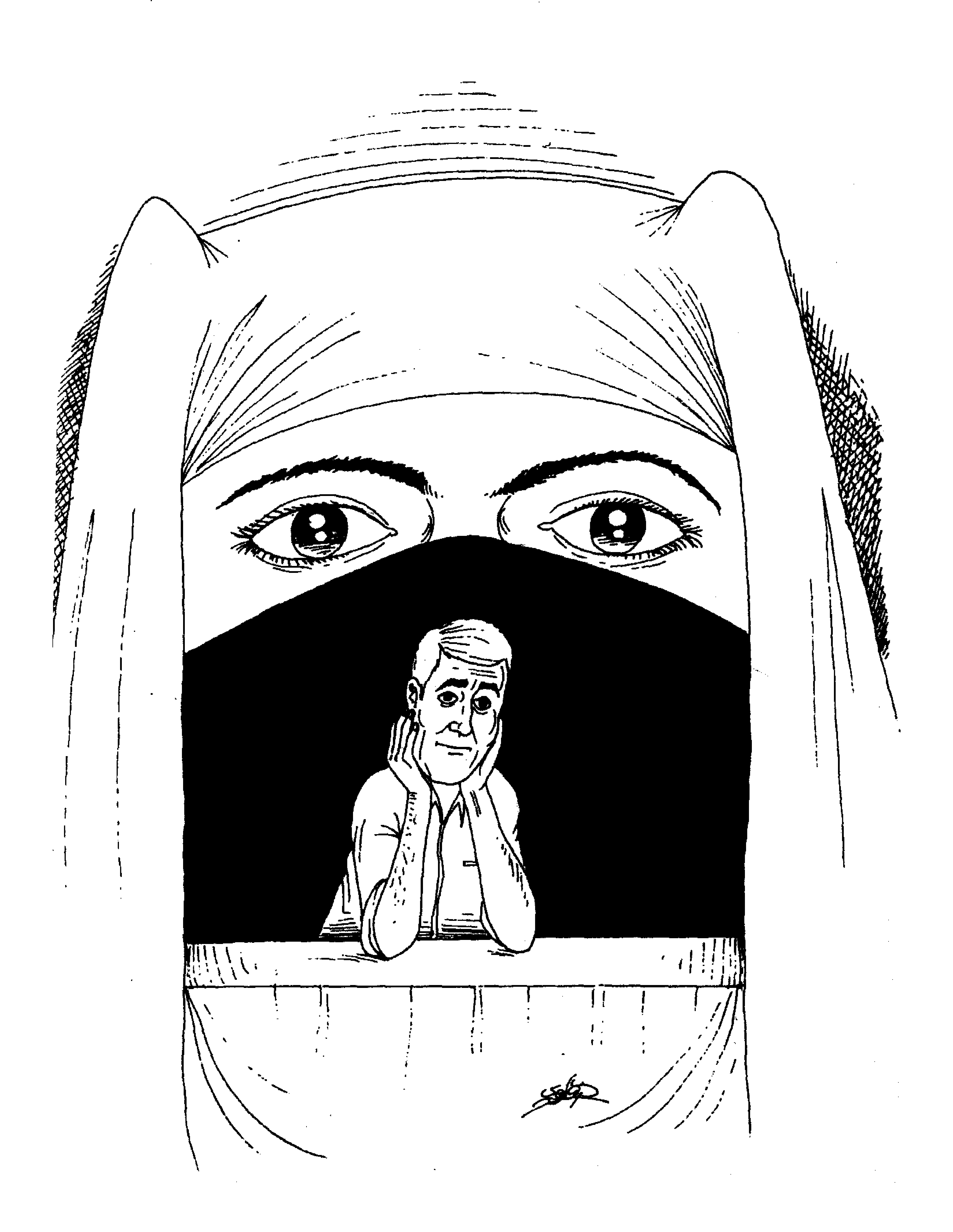
ـ ألم تكن بالمحفظة عندما اشتريت البنزين؟

فمرت أمام عينه صورة ربة البيت وهي تستميت في أن يخلع سترته فتجمد ولم ينبس.

وأخرج الآخر محفظته لدفع ثمن السجائر ولكنها كانت هي الأخرى خاوية.

1978

الغريب



وصل إلى فاس في ساعة متأخرة من الليل. ألح على أن يصل تلك الليلة. لم يكن لديه من الصبر ما يكفي لانتظار الصباح رغم أنه انتظر ثلاثين عاما.

في الفندق فتح الموظف جواز سفره وقرأ الإسم وصحا كأنما صب على وجهه كوب من الماء. ما زال الناس يذكرونه إذن.

وحين خرج العامل الذي حمل حقائبه إلى الحجرة فتح الشرفة وأطل على حديقة أندلسية تنيرها مصابيح مغروسة في الأحواض ومن خلف أسوار الحديقة بدت له أضواء المدينة القديمة كأنه يراها في المنام.

في أحلامه كان يطل عليها من حجرة ضيقة وباردة، فكانت تبدو بعيدة والجدران عالية وكان يرى أمه تحت،

تشير له أن ألق بنفسك فيجيبها:

ـ لا أستطيع!

ولا تسمعه. بعض الأحلام يصعب التفريق بينها وبين الحقيقة، والعكس.

وهبت على الشرفة ريح تحمل رذاذ مطر خفيف بلل وجهه فمسحه بكم لباسه الكهنوتي كأنه يمسح دموعا. ولربما كانت هناك دموع في وجهه المبلل بماء المطر.

ترك الشرفة وغير ثوبه ودخل في الفراش. محال أن ينام الليلة. حواسه يقظة ورأسه يضج. عادت الأحداث التي كان يحسب أنه نسيها. انبعثت واضحة كأن الثلاثين عاما لم تكن.

رأى الشاب الذي كانه يقف في ذلك اليوم المشهود والكهان من حوله منشغلون به، مستغرقون في حركات وتراتيل. كانت عيناه معلقتين بشمعدان يساوي قامة الغلام الذي يحمله بينما خياله يستعرض الأحداث في البيت عندما يصله الخبر.

أمه ستعاودها الحالة التي رآها عليها في طفولته فملأته

فزعا وجعلته لمدة طويلة يجفل منها ويشعر بالنكد حتى تمنى الموت. ستصك وجهها وتلطم فخذيها وتكشف شعرها وسوف يتهاوى جسدها الممتلئ على الأرض وينتفض كالديك المذبوح. وسوف تنطق بكلام غامض كأن شخصا بداخلها يتكلم بلسانها وسيأتيها الخدم بالمجمرة ويحرقون البخور ويرشون على وجهها ماء الزهر ويحضرون إمام المسجد ليصرع بالقرآن الأهواء التي انتابتها. أما أبوه فسيصاب بالذهول فلا يفعل شيئا ولا يعي ما حدث إلا فيما بعد. وسيتفشى الخبر في أرجاء المدينة في زمن قياسي فالفضائح في البلاد المتخلفة كالسمن البلدي لها رائحة نافذة ولو كانت في قيعان الجرار. وستختنق الدار بالنحيب والتصويت والنواح بينما يردد الرجال مشفقين أو مستسلمين:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون!

انتهت الطقوس دون أن يدري وسحبوه خارج الكاتدرائية فأدرك أنه رجل ارتد عن دينه وأن اسمه سيحور ليناسب النطق اللاتيني ويضاف إليه لقب «pre» وأن عليه أن يستأنس بالشخص الجديد الذي أصبحه.

في اليوم التالي علم أن تابوتا خاويا قد شيع من بيتهم إلى المقبرة وأن المدينة كلها مشت في جنازته الرمزية وأن

الطرقات عجت بحشود هادرة بـ "لا إلاه إلا الله محمد رسول الله!" حتى خيل للناس أنه يوم الحشر. وقرأ في الصحافة الاستعمارية الصادرة في الدار البيضاء: "إن استقبال المدارس المسيحية لأولاد المغاربة قد آتى أولى ثمراته." ولكنها حذرت من أن تزرع الحادثة الهلع في قلوب السكان فيمتنعون عن إرسال أبنائهم إلى المدارس. وإلى هنا انتهى عهده بالمدينة وأهله فقد انتقل إلى فرنسا حيث بدأ حياته الكهنوتية وواصل تعليمه.

شعر بوخز في ذراعه كعادته كلما نام على جنبه الأيمن فقعد في الفراش وأشعل الضوء ثم سأل عامل الفندق عن الساعة في المهتف فقال له:

ـ الثالثة صباحا.

ضبط ساعته التي كانت ما تزال تشير إلى التوقيت الفرنسي وعاد يحملق في الظلام.

عمره خمس سنوات. أبوه يضرب أمه. وهو يبكي ويصيح ويكاد الفزع يقتله. يمسك بأذيال أمه وهي تمسك بتلابيب أبيه والثلاثة يتدحرجون حول النافورة الرخامية القائمة وسط الفناء المرصع بالفسيفساء وكلام يضيع في الصراخ

والنحيب لا يفهم منه إلا: "زواج... ضرة... الأمة السوداء." وكان ذلك هو اليوم الذي رأى فيه أمه تصاب بالصرع.

في تلك السن دخل مدرسة الراهبات. كان الصبي الذي يقوم بأعمال السخرة في البيت يحمله على قفاه ذهابا وإيابا بعدما ينفحه بشيء من الحلوى التي يشتريانها من باب مولاي ادريس مقابل ندف الصوف التي توزعها في المدرسة الراهبة ريجين على التلاميذ المغاربة.

كان يقضم قطعة الحلوى البيضاء الصلبة التي يسيل لها اللعاب وهو يتفرج على الصناع والدكاكين من فوق طاقية الصبي وقد أطبق بيديه عليها وأحكم هذا الأخير قبضتيه على كوعيه ليمنعه من السقوط.

في البيت كانت ياسمين تستقبله بالتهليل. كانت تحبه كما لو كان ابن بطنها بعدما تولت رعايته منذ ولادته. وكانت تعيد عليه حكاية مجيئها من السنغال وكيف سرقها تجار الرقيق وباعوها وهي طفلة فكان يصغي إليها وهو ينظر عن قرب في وجهها الفاحم السواد الذي تبرق فيه أسنان ناصعة.

كان يحلو له أن يمتطي ظهرها إذا سجدت للصلاة فإن ضبطته أمه وهمت بضربه حالت بينها وبينه. كانت دائما تنحاز له ظالما ومظلوما وتغضب إذا عاقبه أبوه. ترى كيف أصبحت ياسمين اليوم؟

وارتفع صياح الديكة في السطوح، جاء بعده صوت المؤذن ثم لم يدر كيف سرقه النوم.

استيقظ في الثامنة وخرج دون أن يتناول الفطور وما أسرع ما وجد نفسه في الدروب المغسولة بالمطر. خامره انشراح وشد نفسا عميقا من هواء الصباح البارد الممزوج بأريج النعناع الآتي من حزمة يبيعها صاحبها في جنب الطريق.

مشى بنهم. عيناه تنظران بلهفة ومشاعره ترق لرؤية الأزقة والطرقات المرصوفة بالحجارة والجدران البالية ودواب الحمالين، وسيلة النقل منذ نيف وألف عام. ومع مرور الوقت بدأت تفتح الدكاكين وورشات الحرفيين ويرتفع صوت المطارق.

كل شيء كما كان، كأن الزمن توقف بهذه المدينة.

وتسرب إليه مما يراه شعور بالسعادة وخامره تعاطف غامر مع المارة فقال:

ـ الإنسان كالشجرة له جذور تربطه بالأرض!

ورأى رجلا يشبه أباه فاستند إلى حائط وارتفعت ضربات قلبه ثم انتبه على صوت حمال يصرخ:

ـ بلاك!

فالتصق بالحائط لتمر الدابة المحملة بجلود مدبوغة يفوح منها عطن، فغم أنفه وتذكر أنه لم يفهم الأصل اللساني لـ "بلاك" هذه إلا في أسواق بغداد، حيث يردد الحمالون: "بالك! در بالك!"

وصل إلى المسجد القريب من زقاقهم فوجد عند مدخله كالعادة جماعة العمي تتلو القرآن بالقراءة المغربية فضرب قلبه مرة أخرى.

اتجه نحو البيت ووجد بابه مردودا فتنفس بعمق قبل أن يدق اليد الحديدية دقا ليّنا. في طفولته لم يكن يرحم هذا الباب. كان لا ينفك يركل ويخبط حتى يفتحوا له.

وبعد حين سمع خطوات ثقيلة ووسوسة أساور ثم أطلت

ياسمين من وراء الباب. عرفها رغم أن السنين قد أخذت منها ودقق النظر في وجهها فانطمست صورته الأولى في ذاكرته. هي أيضا عرفته ولكنها لم تنبس. وجاء من الداخل صوت امرأة طاعنة في السن:

ـ من بالباب؟

صوت أمه. وغابت الأمة العجوز مدة خيل إليه أنها طالت وعندما رجعت بادرها بقوله:

ـ أنا عزيز! عزيز. . . ألم تعرفيني؟

فردت عليه بنبرة محايدة:

ـ عزيز مات ودفناه منذ ثلاثين عاما.

وأغلقت الباب وسمع خطواتها تبتعد.

تلفت حوله. خيل إليه أن عيونا ترقبه. وحاول أن ينصرف فوجد صعوبة في المشي وتمنى لو كانت سيارات الأجرة تصل إلى هذه الدروب.

جلس في مشرب يبيع عصير البرتقال وسمع النادل يقول له وهو يضع كأس العصير أمامه:

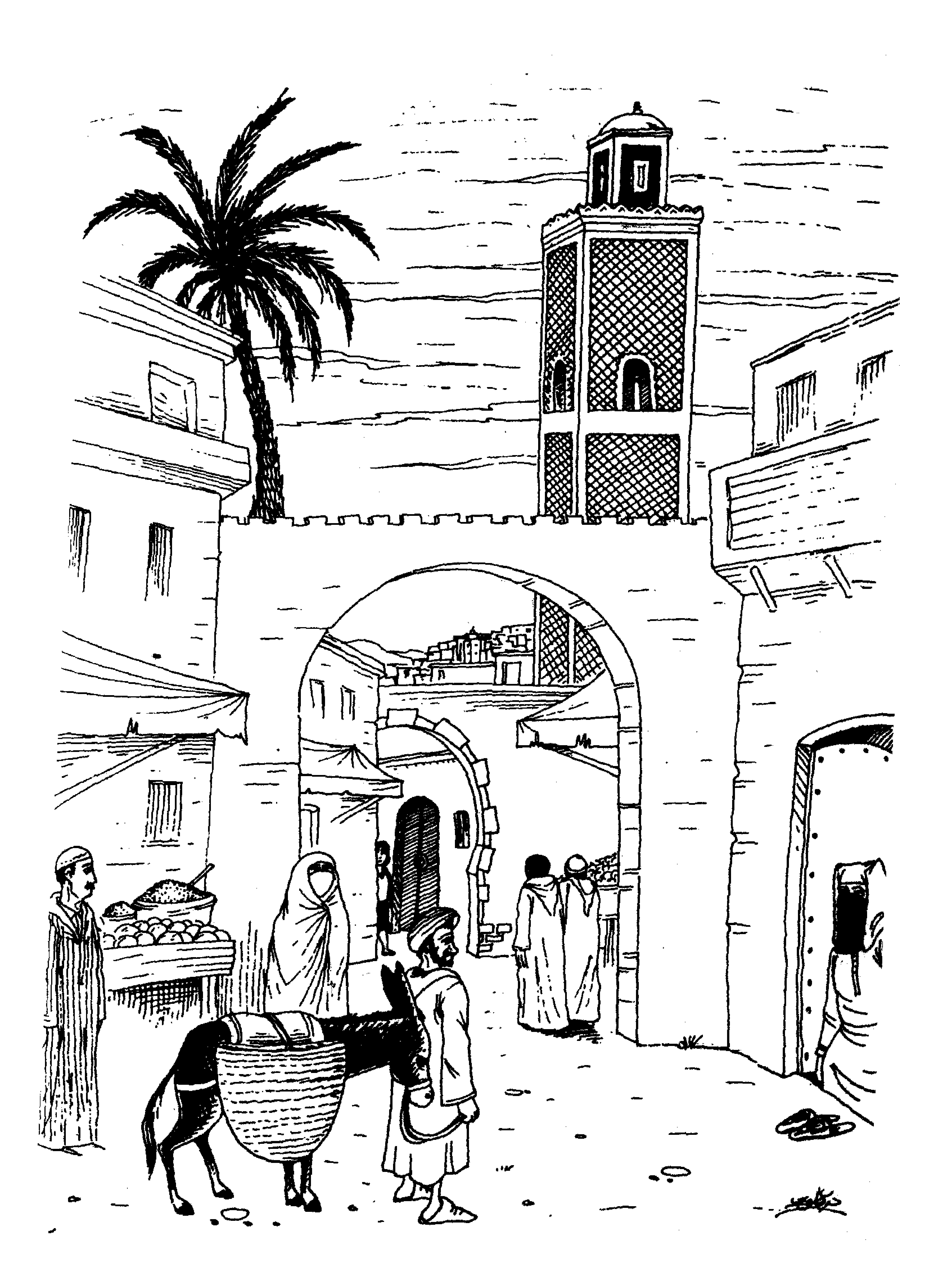
ـ جو كئيب!

فانتبه إلى أن نفسه أيضا كئيبة. واستغرقه السهوم فلم يدر كم مر عليه من الوقت في مكانه ذاك وحين غادره مر ثانية بجماعة الشحاتين العمي وظلت قراءتهم الحزينة تشيعه حتى غيبه الطريق.

1978



بطالة



عندما تركت في 1980 العمل الذي كنت قد أمضيت فيه سبع سنين، كنت قد اشتغلت منذ أنهيت دراستي، عشرية كاملة سقت فيها السيارة بين البيت والعمل ستة أيام في الأسبوع، أربع مرات في اليوم باستثناء السبت، وسلكت الطريق آليا وأنا أستجيب لإشارات المرور برد فعل لم يخب أبدا. مع ذلك لو سئلت عن نوع الأشجار في هذا الطريق ما عرفت إلا النخيل في الشارع الرئيس الذي يتفرع منه شارعنا والذي أستدل به للإرشاد إلى عنواني كلما اقتضى الأمر.

في البداية كنت أجد متسعا لإطالة النظر ذات اليمين وذات اليسار، أيام كانت تعبئة السيارة بالبنزين بثلاثين درهما أما الآن فبالكاد أصل سليمة ممن يوشكون أن يتعدوا حتى من فوق سقف السيارة ومن الراجلين الذين لا تعرف متى وأين سيطلعون لك.

عندما كنت أتعلم السياقة قال لي المدرب:
ـ وأنت وراء المقود تسوقين ثلاث سيارات.
فهناك الدراجات النارية أيضا والراجلين.

منذ اشتريت سيارة لم أعد أعرف سكان الحي. لقد بيعت أغلب الفيلات ذات الحدائق والأشجار لمقاولات سوتها بالتراب وبنت على أنقاضها عمارات عصرية سكنتها أسر من ذوي الدخل المرتفع ورحل السكان الأصليون الذين كنت أعرفهم أيام كنت طالبة أمشي على الأقدام.

وحين فقدت عملي بدأت أمشي من جديد فتعرفت إلى الحي والمدينة. رأيت ما تبقى في حينا من فيلات بجنباتها المزينة بالجَهنَّميَّة والخبيزة وزهرة الراعي، والتي تكتسح الرصيف للأسف وتوشك أن تهجم على الدور. بيت واحد له حارس، أو بواب أو بستاني يسقي حديقته ويغسل الرصيف أمامه كل يوم قبل الغروب، ويشذب جنباته بانتظام وخبرة ترجح الاحتمال الثالث وتبرز عريش ورد أبيض يرصع هامة السياج المورقة.

وجدت مقاهي ودكاكين حلوى نبتت مع العمارات ولوحات نحاسية مصقولة تعلن عن إدارات وعيادات،

وعلامات أخرى عليها كتابات باللغتين العربية والفرنسية، بدائية ومتطورة على ورشات إصلاح الثلاجات، ومخابز واستديوهات تصوير فوتوغرافي، وصيدليات وقرطاسيات ومحلات حلاقة نسوية وأبناك وواجهات تعرض علبا وقارورات وأمشاطا ملونة، والمزيد من المقاهي وأوراش العمارات. إن الحي يتحول في صمت إلى مركز تجاري.

وجدت شوارعه الرئيسية وساحاته قد أصبحت مزدحمة بوجوه جديدة. لباس البنات استثمار حقيقي والتسريحات بذل فيها جهد واجتهاد، في حين أن مجهود المتزوجات في هذا الباب غير كافٍ.

في السيارات أزواج وراء الواجهة، تنضح وجوههم بأحوال روحية محبطة. راهنت ألا أجد على اثنين منها بسمة مشتركة وربحت الرهان.

وبعد الحي أوسعت التجربة. رجعت إلى أزقة المدينة القديمة وأخذت كل الوقت لتذوق مرآها المفعم بنكهة التراث ثم انطلقت شرقا وشمالا وجنوبا فعثرت على أحياء شعبية وأخرى أقل شعبية وأسواق لم أكن أعلم بوجودها ومدن سرية مخيفة، مخفية عنوة عن الأنظار.

كنت عاطلة فكنت أتوقف وأتمهل وأرى. لا شيء
ورائي ولدي الوقت، كل الوقت لمعرفة المدينة التي عشت
فيها عشرين عاما.

1978

عن أية هيئة كان يتحدث؟



في باب العمارة هذا الصباح كرسيان. كرسي القصب المتهتك، تغطيه رقعة لينة وداكنة، كرسي محمّاد الذي يسكن مع زوجته وأولاده الثلاثة غرفة في المدخل. وقد كان (الكرسي) هناك منذ سكنت في العمارة، أي منذ نحو ثلاث سنوات. وكرسي معدني مقعده من الجلد الأحمر، لبواب جديد لا أحد يعرف اسمه اللهم إلا ساكن الشقة 18.

عمارتنا الآن لها بوابان ولذلك سبب. في رسالة كتبها ساكن الشقة 18 بعربية ركيكة ودسها تحت الأبواب، يقول إن محمّاد لا يقوم بعمله. وأن زوجته (زوجة ساكن الشقة 18) تعرضت لاعتداء بالمطوى في المصعد، يوماً في الساعة الرابعة والربع. وأن محمّاد، عندما طرقت عليه الشرطة باب غرفته خرج وهو يمسح عينيه. وأنك كلما طلبته خرج وهو يمسح عينيه. وأن هذا البواب ينام ولا يحرس. يعتقد أن

مهمة البواب هي النوم. لذلك وجب طرده. وقد جاء في انتظار ذلك ببواب على حسابه. هذا ما قاله في الرسالة، أما في الكواليس فمحمّاد مخبر ولذلك لا ينتظر من الشرطة أن تفعل معه شيئا، رغم أن خمسة عشر من رجالها حضروا "يوم الحادث". قال لهم:

ـ خذوه!

فقالوا:

ـ ليس هناك قانونيا ما يبرر أخذه.

فقال إنه سيطلب وزير الداخلية شخصيا.

محمّاد ينكر وقوع الاعتداء جملة وتفصيلا ويقول بلكنته إن ساكن الشقة 18 عينه على الغرفة. يريدها ليخزن فيها صناديقه التي يأتي بها محملة، الله أعلم بأية مصيبة ومن أية جائحة. صناديق رجل بمفرده لا يستطيع أن يزحزحها، كأن بداخلها الرصاص.

لجأ محمّاد إلى صاحب المقهى الذي استطاع منذ عام أن يفتح مقهاه في الطابق الأرضي بدون موافقة سكان العمارة، وقال له:

ـ ليس هناك أي اعتداء. لا توجد حجة على وقوعه. لا جرح ولا دم ولا شهود.

ـ تمثيل يعني؟

ـ القضية وما فيها أنه يريد الغرفة ليضع فيها صناديقه.

ولكن جواب صاحب المقهى أصاب محماد بالذهول، فقد قال له بالحرف:

ـ الغرفة أنا الذي سآخذها وسيرى. أريد أن أجعلها مطبخا.

الحارس الجديد تخرج هذا العام من كلية الحقوق. يلبس الجينز والقمصان الأمريكية وأحذية الرياضة. يقتعد كرسيه إلى يمين الباب في وجوم وصرامة وعندما تصل الشمس إليه يتحول إلى الجهة المقابلة من الطريق بحيث يرى الداخل والخارج، إلى العمارة، عبر نظارته الشمسية ذات الإطار المذهب، في حين كرسي محماد، رغم كل شيء، شاغر معظم الوقت، كالفزاعة في مكانه من البسطة أعلى الدرج.

الحارس الجديد، كلما مررتُ به ينظر إلى الأرض في وجوم وصرامة. يحسبني أتهمه بمحاولة الاستيلاء على

رزق رجل معوز وصاحب عيال. وذات صباح قلت له وأنا أمر به:

ـ السلام عليكم!

فرفع رأسه باشا وهو يردها بأحسن منها. ومنذ ذلك الصباح، بدأت كلما مررت به ورد تحيتي بتلك البشاشة، أذكر وجها آخر مضت عليه اثنتا عشرة سنة.

كنت في أوستين، تكساس، وكان قد مضى علي فيها ستة أشهر، في مأوى جامعي للطلبة. كنت أنتظر أن أستأنس قليلا قبل أن أغامر بالسكن وحدي. وكان نزلاء ذلك المأوى أبناء أثرياء تكساس. يأتي الواحد منهم بمفروشاته الفاخرة وزرابيه ولوحاته وآلاته الإلكترونية ومهتفه وسيارته وطبقيته التي بهتتني، أنا التي جئت أحسب أهل تكساس مجرد رعاة بقر. إلا أنني لم أعبأ بالأمر لأنني راحلة راحلة.

وكانت مغربية عرفتها في المسجد تلح علي لأسكن معها. كانت تأتي كل جمعة وتذكرني أن بيتها كبير ومجهز بما تركته لها الأخوات المسلمات في نهاية مقامهن وأنني لن أعدو أن أدفع نصف الإيجار والفواتير. وقبلت بعد لأي بسبب كل ذلك الإلحاح من جهة ولأن الأخت، من جهة

أخرى، على كل حال، تلبس الحجاب وإن كان يشف أحيانا، ثم إن عرضها يخفف التكاليف عنها وعني ويكفيني عناء البحث وضياع الوقت.

عشية انتهاء الفصل الدراسي كان الطلاب قد غادروا في سياراتهم. ومن أنهى دراسته جاء بسيارة ترحيل حمل عليها قضه وقضيضه وانطلق في ضجة من الكانتري ميوزيك. ولم يبق في المأوى سواي فجمعت ممتلكاتي في حقيبتين والكتب في صندوق وطلبت الأخت المغربية.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

ـ هل أنت في البيت؟ هل أستطيع القدوم؟

ـ نعم ولكن يجب أن أقول لك شيئا. لقد فكرت. أنا الآن عندي كل هذا العفش (استعملت اللفظ الشرقي) وذلك يوفر عليك أموالا طائلة. أو أنك تظنين العفش بلا ثمن؟ يجب أن تدفعي أجرة البيت وفواتير الماء والكهرباء وحدك لأنني أوفر العفش.

ـ جازاك الله خيرا. السلام عليكم.

لم يكن أمامي سوى ثلاث ساعات قبل إغلاق بناية

المأوى فاتصلت على الفور بوكالة عقارية. وبعد خمس دقائق كنت في سيارة أحد مستخدميها وهو يفهمني أن الشقق التي سنزورها في مجمع سكني جنوب المدينة مجهزة بثلاجة وموقد طبخ فقط.

وبعد نصف ساعة كنت في إدارة المأوى أعقد صفقة أخرى أتنازل بمقتضاها عن التسبيق مقابل حمل كل محتويات حجرتي إلى مسكني الجديد، وأسأل عن كيفية الترحيل فقيل لي إن هناك مكسيكيا يغسل الأواني في المطبخ له سيارة بيك آب، قد يقبل القيام بهذا العمل.

وبعد نصف ساعة أخرى كان المكسيكي قد وضع كل شيء في مكانه في مسكني الجديد وكنت أشكره عند الباب وأفتح محفظة نقودي، لكنه اعترض بشدة قائلا:

ـ لن أتقاضي منك سنتا واحدا. قررت ذلك بمجرد ما رأيتك في الإدارة. لو كان الأمر يتعلق بأولائك الأمريكيين لما قبلت ولو دفعوا لي مائة دولار، أما أنت، بسبب موقفك منا لن أتقاضى منك سنتا واحدا. أنت عندما أتناول منك صينية الأطباق الفارغة عبر نافذة المطبخ لا تكون لك تلك الهيئة.

وما زلت كلما مررت بحارس العمارة الجديد ورأيته يرفع رأسه باشا وهو يرد على تحيتي، أفكر في ذلك المكسيكي وأتساءل: "عن أية هيئة كان يتحدث؟"

1999

قصتان



ـ خديجة بنت احمد! ميلودة بنت البشير!

وهرعت عجوزان على إثر الصيحة، تكمشان أسفل إزاريهما الصينيين، المزينين بوردات حمراء متفتحة. وقفتا بين يدي القاضي فقال وهو يقلب أوراقه:

ـ المدعية، خديجة بنت احمد!

ـ نعم آس!

ـ خرجت من الدويرة برضى نفسك؟

ـ لا آس! قالت إنها ستصلح السقف وأعود. إتجهت نحو القبلة وقالت: "وحق هاد القبلة!" تركتُ كل شيء. لم أحمل سوى ثيابي. قالت: "شهر وتعودين." ولكنها هتكت الصحن يا سيدي وهدمت الدرج. بقيت الغرفتان معلقتان في الهواء. عامان والغرفتان معلقتان وأنا من بيت هذا الأخ إلى

بيت هذه الأخت. صحيح ما هي إلا حجرتان ومطبخ ولكنها دويرتي يا سيدي.

داهمتها دموع مسحتها بطرف إزارها ووقفت تنشج كالأطفال ثم واصلت:

ـ دخلتها عروسا وكنت أحسب أن لن يخرجني منها إلا الموت. ألم ندفع ثمنها؟ ثلاثون عاما. دفعناه وزيادة.

فقالت المدعى عليها بامتعاض:

ـ إن هي إلا أربعون درهما في الشهر. ليست ثمن كيلو واحد من اللحم ولا حتى قنينة غاز.

ـ قفي عند حدك! وأين الدم؟ دم نفاساتك الذي حملته؟ وطبخي في أفراحك وأتراحك؟ وأولادك الذين تربوا على ظهري؟ ثلاثون عاما، ست مائة وستون شهرا، مليونا سنتيم وزيادة، كافية لشراء الدار والدويرة أو لا؟ لولا تهور المرحوم وتبذيره! يسمونه كرما! ذهب سعيه في أولاد الحرام. كان اللحم يدخل بيته بالسبعة كيلو. لو أنه...

قاطعها القاضي قائلا:

ـ دعيك من المرحوم! وهل هو الذي قال لك: "سلميها الفتاح واخرجي"؟

ـ لم أسلمها المفتاح يا سيدي. المفتاح معي.

انكفأت إلى جيب سروالها تخرج مفتاحا كبيرا أسود.

ـ. . . ها هو! ولكن ماذا أصنع به؟ الدويرة بلا درج ولا صحن، معلقة في الهواء.

ـ أغلقتها يعني، وذهبت؟

ـ جارتي! واتجهت نحو القبلة! نغلق ونذهب إن كنا مسلمين.

ـ وماذا تريدين الآن؟

ـ دويرتي!

داهمتها الدموع مرة أخرى وقالت لنفسها:

ـ عندما أقول هذه الكلمة لا أجد صبرا.

ثم للقاضي:

ـ يساورني الخوف إذا فكرت في الرحيل، الخوف والغم. كأنني على وشك أن أهاجر أو أموت. دويرتي يا سيدي.

وتأهبت للبكاء مرة أخرى.

ـ وأين كنت كل هذه المدة؟ لما لم تعرضي قضيتك على المحكمة إلا اليوم؟

ـ كانت بين أيدي الصالحين يا سيدي، أولياء الله الصالحين.

ـ وسحبتها منهم؟

قالها القاضي وتبسم بتحفظ فتبسم الحاضرون ثم توجه إلى المرأة الأخرى التي كانت تحدج غريمتها بشماتة وقال:

ـ أدلي بأقوالك!

ـ منذ عامين، بارك الله فيك، بدأ السقف يحثو عليَّ ترابه فطلبت من هذه المخلوقة أن تخرج مدة إصلاحه ولكن ما إن وضع الرجل فيه يده حتى انهدم وتبعه الدرج. كاد يودي بحياة الرجل لولا ألطاف الله. هذه هي القضية بلا زيادة ولا نقصان.

ـ ويلي، ويلي! لقد توجهت نحو القبلة يا ميلودة! قلت: "شهر." قلت: "أصلح وتعودين."

ـ لا تولولي علي! لا مجال للإصلاح. الدار تريد أن تنقض. يا سبحان الله!

ـ كفى!

قالها القاضي بصرامة وأصدر الحكم:

ـ غدا إن شاء الله في تمام العاشرة صباحا يقوم رجال الإطفاء بإنزال متاع خديجة بنت احمد وإخراجه من الدويرة الكائنة في درب الفران، رقم 3 مكرر، وبحضور الشرطة

تتسلم هذه الأخيرة متاعها وتسلم المفتاح لصاحبته. أغلق هذا الملف! الذي يليه!

ذلك اليوم علمت خديجة بنت احمد أن عجوزا مطلقة تبحث عن امرأة تأجر لها غرفة في دارها.

العجوز المطلقة تسكن مع طفلين توأمين تخشيبة في سطح دارها، وفي الطابق السفلي حجرة ثانية يسكنها عجوز هرم مع زوجته وهي قروية خام دون العشرين، أحرقتها الشمس من طول العمل في الحقول.

حكت خديجة بنت احمد قصتها في السطح للعجوز وقالت:

ـ يا جا... كدت أقول جارتي. لا تؤاخذيني. قلتها يوم كان كل شيء يجوز علي.

ـ ليس هناك جارات يا للا ولا من يُفعل فيهن الخير ولا أزواج. إسأليني أنا. جارتك ثلاثين عاما؟ ها هو هه!

أومأت بخرصها إلى الطابق السفلي وواصلت:

ـ أربعون عاما زواج وعندما رأى القروية كأنه لم يعرفني من قبل.

ـ ساكن الحجرة الثانية زوجك؟ ومن الذي رمى بالقروية عليه؟

ـ أنا! أنا! جئته بها بنفسي. وجدتها تتباكى في الضريح وحملها في بطنها. خائفة من إخوتها ولائذة بالضريح. قلت لنفسي هذا الجنين الآن تحمله على فزع وأنت حرمك الله الذرية. خذيها إلى البيت وعندما تضع تذهب إلى حال سبيلها ويبقى لك الوليد. قالت، السائبة: "بيني وبينك هذا الولي!" وتعاهدنا عند رأسه. "تسترين على حتى أضع وما في بطني لك خالصا بعد ذلك." وبقيَت حتى وضعت عندي في البيت. وضعت، بقدرة الله، توأمين ذكرين سجلهما العجوز توا في الحالة المدنية. اعتنيت بها كأنها بنت بطني. لم أكن لأخرجها وهي في طراوة النفاس. قلت أصبر حتى تكمل الأسبوع وبعد الأسبوع قلت أصبر أسبوعا آخر ثم قال العجوز: "فعلت خيرك، أكمليه! أبقيها أياما أخرى. من جهة ترضع الطفلين ومن جهة تكمل الأربعين وأجرك على الله!" فقلت آمين.

ـ وعندما أتمت الأربعين قلت تتم مدة الرضاع بالمرة؟

ـ في تمام الأربعين أخذتها إلى الحمام وخضبت يديها وقدميها بالحناء وبذلت لها ما كتب الله ثم قلت لها: "في أمان الله!" فقالت: "أنت التي "في أمان الله!" أما أنا، داري ودار أولادي!" وأخرجت لي عقد النكاح.

ـ عقد عليها العجوز؟

ـ وطلقني.

ـ أي سفيه! و لكن الغلطة غلطتك! أرضعت الطفلين أربعين يوما! تعلقت بهما!

ـ لوحت لي بالعقد فهرعت إلى الصندوق وأخرجت كناش الحالة المدنية ولوحت لها به و أنا أقول: "خذي العجوز أما الولدان فهيهات!" وضعت الكناش في طوقي وحملت الطفلين كلا في ذراع وهرولت إلى التخشيبة وأغلقتها علي.

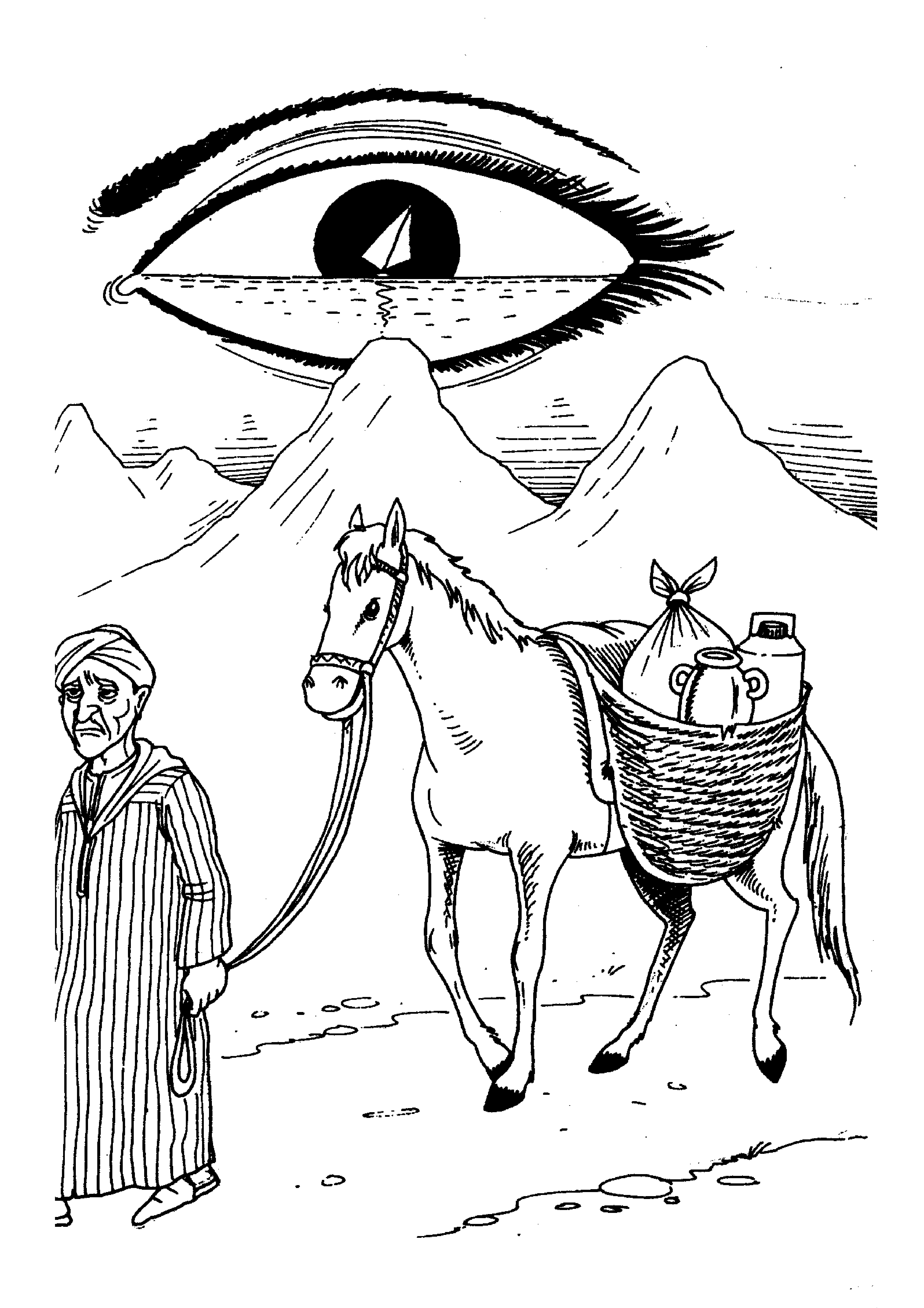
ـ ولماذا تبقين في البيت أصلا؟

ـ وأين أذهب؟ مقطوعة من شجرة وحصتي فيه، من عرق جبيني. تقولين: "توجهت إلى القبلة"؟ أنا عاهدتني عند رأس الولي.

التوأمان عمرهما ثلاث سنوات. عندما تخرج العجوز لقضاء حاجاتها تغطي شباك حلقة الدار بصفيحة وتغلق باب السطح فتهرع القروية إلى قصبة مسندة في الركن، تحرك بها الصفيحة وتنادي: الحسن! الحسين!" وعندما يطل الطفلان من الفتحة تربط في أعلى القصبة حلوى تمدها إليهما.

1999

مُحَا والبحر



محا[1] يعيش في الجبل، مسافة نصف نهار من البندر. ما زال، تبارك الله، رغم سنواته السبعين، ينزل بالبغلة يوم السوق مرة في الشهر على الأقل. يغدو بالدجاج والبيض والسمن واللبن الحليب والمخيض، ويروح بكفاية شهر من الشمع والكبريت. سكان البندر كلما رأوا محا يسألونه ساخرين متى سيذهب لرؤية البحر. ذلك أنه لم ير البحر في حياته. كل من كبر ومن صغرشأنه في البندر وما جاوره، رأى البحر إلا هو.

جوابه أن البحر في آخر الدنيا وأنه مشغول. صحيح أنه إما يحرث أو يحصد أو يدرس أو يجني، إن لم يكن يقص السدر ويدعم سياج الزريبة، أو يرمم سقف الدار. ثم، بالله

---

(1) تصغير أمازيغي لمحمد.

من أين له النقود؟ أليست البطاقة إلى الدار البيضاء بثمن نعجة على الأقل؟ ناهيك عن مصاريف المدن حيث حتى الماء بالفلوس. رؤية البحر، إن أردت الحق، تحتاج إلى ثروة وهو مجرد رجل يقوم بعنت الأرض والأيام، لا ريع ولا راتب، إلا أن يقع على كنز مدفون وهو ما لم يعد واردا. ليقولوا ما يقولونه! هو لا يملك رؤية البحر.

ثم عَنَّ لمحا أن يفعلها. نزل ذات صبيحة سوق فتوكل على الله وباع البغلة بخُرجها ثم سمى بالله وركب شاحنة إلى الدار البيضاء. جلس جنب السائق وأخرج من قلنسوة جلبابه الرزمة التي كان قد وضع فيها ثمن البغلة. فك عقدتها وسحب من الرزمة ورقة من فئة مائة درهم، مدها للسائق وأعاد عقد المنديل بإحكام ثم ثبته في قاع القلنسوة ودسها وراء ظهره.

وسارت الشاحنة على بركة الله كالأرجوحة، صاعدة، نازلة ومحا يبتسم لمشاهد الوصول التي تعبر في ذهنه ويقول لنفسه: "أنزل عند البحر. لا أضع قدمي إلا عند البحر. أرى البحر ويلتقط لي المصور المتجول صورة. بعد ذلك أركب التاكسي (سيارة صغيرة حمراء في سقفها إطار أصفر عليه كتابة، شيء كالسياج). أذهب إلى الفندق المكتوب في

الورقة." سحب قلنسوته وتحسس الورقة في الرزمة تحت ثمن البغلة ثم أعاد القلنسوة إلى مكانها بين ظهره ومسند المقعد والتفت إلى السائق:

ـ يقولون إن البحر، تبارك الله، كبير.

ـ جدا!

ـ هل هو بحجم البحيرة مرتين؟

ـ مرتين!

قالها السائق ورجته ضحكة عاتية حتى ترنحت الشاحنة ثم كررها بنبرة دالة على الاستنكار وقال:

ـ لا! قل ملايين المرات. قل ملايير المرات. البحر، أيها الوالد، مياه لا يحاط بها.

ـ يا!

قالها محا وهو يكشط جلبابه ويضيف متأففا:

ـ هذا الكرسي قاسٍ كالحجر!

طوى الجلباب على ركبتيه بعناية ثم وضعه على المقعد وجلس عليه وهو يقول:

ـ بالله كيف تتعودون على هذه الكراسي؟

سارت الشاحنة ردحا عاد السائق فيه إلى التركيز على

الطريق الملتوي من خلال واجهته المؤطرة بما يشبه الستار، حاشية من المخمل الأحمر، من ضلفين، محفوفة بشرابات، يتدلى من وسطها ويهتز عنقود عنب صناعي، وعاد محا إلى تصوراته قبل أن يقول بغتة بصوت خافت:

ـ أحتاج لبيت الخلاء.

أوقف السائق الشاحنة دون أن يحيد بها فاتخذ محركها غنة سادت في الصمت المديد. ونط محا بخفة وضرب الهواء برجله اليمنى ثم اليسرى وهو يقول:

ـ كأنني مشدود الوثاق!

ثم ابتعد إلى الخلف وأدار ظهره للطريق فجأرت الشاحنة ومضت وهي تشهق وتزفر وتنفخ دخانها. وبقي محا في وسط الطريق، يرفع يديه وينزلهما والشاحنة تنأى وتتلاشى إلى أن انمحت وخمدت غمغمتها.

محا لم ير البحر حتى الآن ولا يريد أن يراه.

1999

زوجة غيورة



عرفت بهيجة عن طريق زوجها. شيء غير مألوف في مجتمعنا. كنت قد اقتنيت له كتبا من الخارج ودعاني للعشاء باسمها، على الطريقة الأوروبية. كان هناك زوجان زميلان لهما في الجريدة. وحكى صاحب البيت على المائدة عن مهمته الأخيرة في أوروبا. قال إن في هولاندا مغربيات لا يتكلمن إلا تاريفيت ويعشن في دورهن المغلقة فسأله زميله:

ـ هل رأيتهن؟ هل كلمتهن؟

ـ أراهن؟ أكلمهن؟ ألا تعرف كيف بدأت اضطرابات الريف؟[1]

ـ حياة أولائك النساء شيء لا نظير له على وجه الأرض!

---

(1) بدأت اضطرابات جبال الريف بعد الاستقلال. ويقال إن من بين أسبابها أمر عمال المحافظات النساء هناك بإماطة النقاب لإثبات أوصافهن في بطاقات الهوية.

قال ذلك الزميل فردت عليه زوجته:

ـ أنت لم تر وجه الأرض.

وحاولا أن يتكلما في وقت واحد ولكنها غالبته حتى أذعن وساد صوتها:

ـ كنا في جدة. كان هناك، أنا أمة الله، والوالدة وعجوزان ومتاع كثير. لك أن تتخيل متاع أربع نساء عائدات من الحج. استأجرنا سيارة بيك آب وطلبنا من سائقها أن يحملنا إلى فندق لكنهم قالوا إننا نحتاج لإذن الشرطة لأننا بلا محرم فذهبنا إلى المخفر. كان الشرطي الذي استقبلنا مكحلا ومخضباً بالحنّاء، في بزة كاكية، مزمومة عليه.

ـ لعله عريس.

قالها صاحب البيت وأضاف:

ـ أنا أيضا رأيت في جنيف سودانيا محنّىً. كان مع زوجته وكانت عليهما سمات العرسان. لعل ذلك الشرطي أيضا كان عريسا.

ـ لعله. الله أعلم. المهم أنه كان يقول كلما حاولنا جداله: "ممنوع الحريم في الفندق!" كأنها جملته المفضلة. قالت له إحدى العجوزين بحدة: "وهل ننام في الشارع؟" فغير جملته لأول مرة قائلا: "إنه القانون!"

ـ وهل القانون هناك ينص على ذلك؟

جاء السؤال من صاحب البيت مرة أخرى.

ـ الله أعلم ولكنه ذكر القانون. أنا متأكدة من ذلك، لأنه كان تغييرا لجملته المكررة. في باب المخفر وقفت أصبر صاحب البيك آب ووقفت العجائز على مبعدة في هلع ومصرية قبيحة عركتها السنون، تلبس الطرحة على ثياب أوروبية، تسألهن عن شأنهن. وفي اللحظة التي كانت تدعوهن فيها إلى بيتها لحقت أنا بهن فقالت مذعورة: "دي معاكو؟ لا! لا!" وابتعدت بشاب سعودي داكن السمرة، يلبس سروالا أوروبيا وتي شورت وهي تقول: "تعالى يا محمد!"

ـ فتش عن المرأة!

قالها زوج الصحافية بالفرنسية، باسما وواصلت هي:

ـ اصفرت العجائز ونزل السائق صافقا باب السيارة، ناترا مسواكه ليكون أعون له على الصراخ، قائلا: "هيه يا حريم! على فين إن شاء الله؟" ثم استغفر ووقف وهو يمسد على لحيته الخفيفة المدببة، في إزاره ذي المربعات وغترته المعصوبة ونحوله الضامر الذي يستحيل معه أن تقدر عمره فقالت لي العجوز التي احتجت على الشرطي، بنبرة باكية: "ماذا سيحدث لنا؟" قلت مناغشة لأخفف عنها: "سنموت

شهيدات!" لكنها أعادت السؤال بجد، بصيغة أخرى: "ما العمل؟" فقلت وأنا أشير إلى مكتب الخطوط الجوية السعودية في الجهة المقابلة من الطريق: "نذهب هناك ونسأل عن رقم تلفون السفارة المغربية."

ـ من بنات أفكارك!

أطلقها زوج الصحافية وتجاهلته.

ـ . . . ولكنهم قالوا إنهم لا يستطيعون مساعدتنا. لاأعرف إن كان عدم الاستطاعة عائدا إلى جهلهم الرقم أو إلى انشاغلهم. الحق أن الزحام في ذلك المكتب كان شديدا. وعندها انخرطت العجائز في البكاء . . .

ـ بركة!

صرخ بها زوج الصحافية وهو يفرج عقدة ربطته ويحرك رأسه بعنف يمنة ويسرة، رافعا ذقنه، زاما شفتيه ثم أضاف:

ـ لقد سمعت هذه الحكاية عشرين مرة ولا أريد أن أسمعها مرة أخرى. بقي فم زوجته منفرجا عن أسنان نضيدة وانخطفت بهيجة ثم وجمت بينما ند عن زوجها ما يشبه الضحكة وقال:

ـ هذا هو الزواج! أحسنت إذ لم تتزوجي!

وجه كلامه إلي فرددت الجملة الأخيرة منه في صيغة

المتكلم، بشكل آلي، وأنا لا أدري أين أنظر في حين رشفت الصحافية من كأس ماء ثم استرسلت وهي تشد على الكأس وتشمخ بأنفها:

ـ نفذ إليّ خوف العجائز بالعدوى فحاولت أن أسيطر عليه. وبينما أنا كذلك سمعت من يسأل: "ما المشكلة؟" رفعت رأسي ووجدت رجلا حليق الوجه، حاسر الرأس، في دشداشة تتقمص جسده الممتلئ. قلت: "هؤلاء أمي وسيدتان التقيناهما في مكة، أنا شبه مسؤولة عنهما. موعد طائرتنا غدا ونحن ممنوعات من المبيت في الفندق." فقال: "أنا تونسي. أعمل هنا بأحد الأبناك. تعالين معي إلى الفندق الذي أقيم فيه وسأقول إنكن قريباتي."

ـ وذهبتن معه؟ وثقتن فيه؟

قال ذلك صاحب البيت.

ـ وماذا كان بإمكاننا أن نفعل؟ مضى ذلك الرجل، يقال له نور الدين المرابط، انظر كيف ما زلت أذكر اسمه! كأنها قصة! لو كانت قصة وقرأها لعرف نفسه. مضى في الأزقة العتيقة يرفع أسافل ثوبه ويسمع خفق نعله ومضينا وراءه، أنا في المؤخرة، أسند أمي. راودتني الريبة، لن أقول إنها لم تراودني، عندما طال بنا التوغل في تلك الأزقة راودتني الريبة ولكنه، والحق يقال، كان هكذا!

شقت الهواء بحرف يدها المبسوطة دلالة على استقامة الرجل، وقلت لمجرد المساهمة في ترطيب الأجواء:

ـ والبيك آب؟

ـ تزحف خلفنا كالحلزون.

فسأل رب البيت:

ـ وكم طلب صاحبها؟ بعد كل ذلك المَرَتون!

ـ السيد التونسي هو الذي دفع له وأظن أن كل ما كان يعنيه في تلك اللحظة هو أن يتخلص منا.

توقفت لنضحك ولكننا لم نفعل فقال زوجها:

ـ هل هذا هو كل شيء؟ حكايتك غير مشوقة.

فردت دون أن تنظر إليه:

ـ لم أحكها كما ينبغي والفضل لك.

عند ذلك فقط نطقت ربة البيت داعية إيانا للإنتقال إلى غرفة مجاورة ثم جاءت بالشاي. ومد صاحب البيت لزميله الجريدة مفتوحة على مقالته عن المغاربة في أوروبا فدفع بها إلى زوجته قائلا: "لقد قرأتها." ودفعت بها إلي دون أن تنظر إليها ولكن صاحب البيت نزعها مني ووضعها على دولاب بمدخل الحجرة . قلت: "أقرأها!" متظاهرة

بالاهتمام فضربها بأنامله إلى قاع الرف دون أن يرد.

ـ الجرائد تابعانا حتى لهنا؟

قالها زميله تداركا وتلميحا فطفت على الشفاه ابتسامة خفيفة. ذلك أن صاحب البيت يلقب بـ "تأبط جرائد" لكثرة ما يرى وتحت إبطه لفيفة منها. ووقف الصحافي وزوجته يودعان فحذوت حذوهما.

حيرني صمت بهيجة تلك الليلة وأرجعته إلى أحد أمرين: إما الخجل أو تلك المعركة بين الصحافي وزوجته ثم عدت وقلت: "كيف تكون الصحافية خجولة؟" فركنت إلى الاحتمال الثاني حتى رددت الدعوة بعد أسبوعين فلم تنبس بحرف. ولم أشأ أن أترامى على التأويلات السهلة وأقول "الغيرة" كما يجدر بي كامرأة حتى التقيت صاحبتنا، الصحافية وسألتها:

ـ ما عهدك ببهيجة؟

فانطلقت:

ـ لا تسأليني عنها. لم أرها منذ تلك الليلة. إنها لا تثق في بنت امرأة.

ـ قولي في زوجها وهي أعرف الناس به.

ـ تغار من أطراف ثوبها. أقولها صراحة وأجري على الله، لم أصدق عيني عندما وجدتك عندها.

ولما عرفت سبب تضايق بهيجة أوقفت علاقتي بها وبزوجها وقد كانت من جهتها على كل حال، كلما لمحتني تغير الطريق ثم نسيتها تماما إلى أن كنت في تاكسي ذات صبيحة وتوقف عند إشارة المرور فرأيت زوجها يعبر معتضدا جرائده، متوكئا على عصى من النوع الرفيع. ولولا الجرائد ما عرفته. انحنى ظهره ونسل شعره وهزل إلى الحد الذي بدت فيه سيقان سرواله والريح يطيرهما كأنما لا يلبسهما أحد فقضيت أنه قد أصيب بمرض العصر.

بعد ذلك بأيام التقيت بهيجة في سوق الخضر. الحقيقة أنها هي التي لمحتني في الزحام فنادت ولوحت وهي تشق طريقها ثم قالت بمجرد ما خلصت إلي:

ـ عاش من شافك!

ـ ومن شافك!

ـ أين أنت؟

ـ في الدنيا. وأنت؟

ـ في لندن. أشتغل في صحيفة عربية هناك (ذكرت اسم الصحيفة بزهو)، منذ ثلاث سنوات.

مرت بذهني صورة زوجها وهو يعبر بجسده الفاني وهي تواصل:

ـ أعود إلى الرباط في العطل. ما زلت أحتفظ بالشقة. لن أفرط فيها. كراؤها قديم ورخيص وعباس (زوجها) على كل حال، يقيم فيها. جاء ممثل الصحيفة العربية لعرض العمل عليه ولما وجده مريضا عرضه علي.

وهمت بالانصراف ولكنها عادت تقول:

ـ اتصلي به! إنه وحيد.

وفتحت حقيبتها. أخرجت ورقة كتبت عليها رقم تلفون زوجها ومدتها لي وهي تؤكد:

ـ اتصلي به! اشربي معه قهوة!

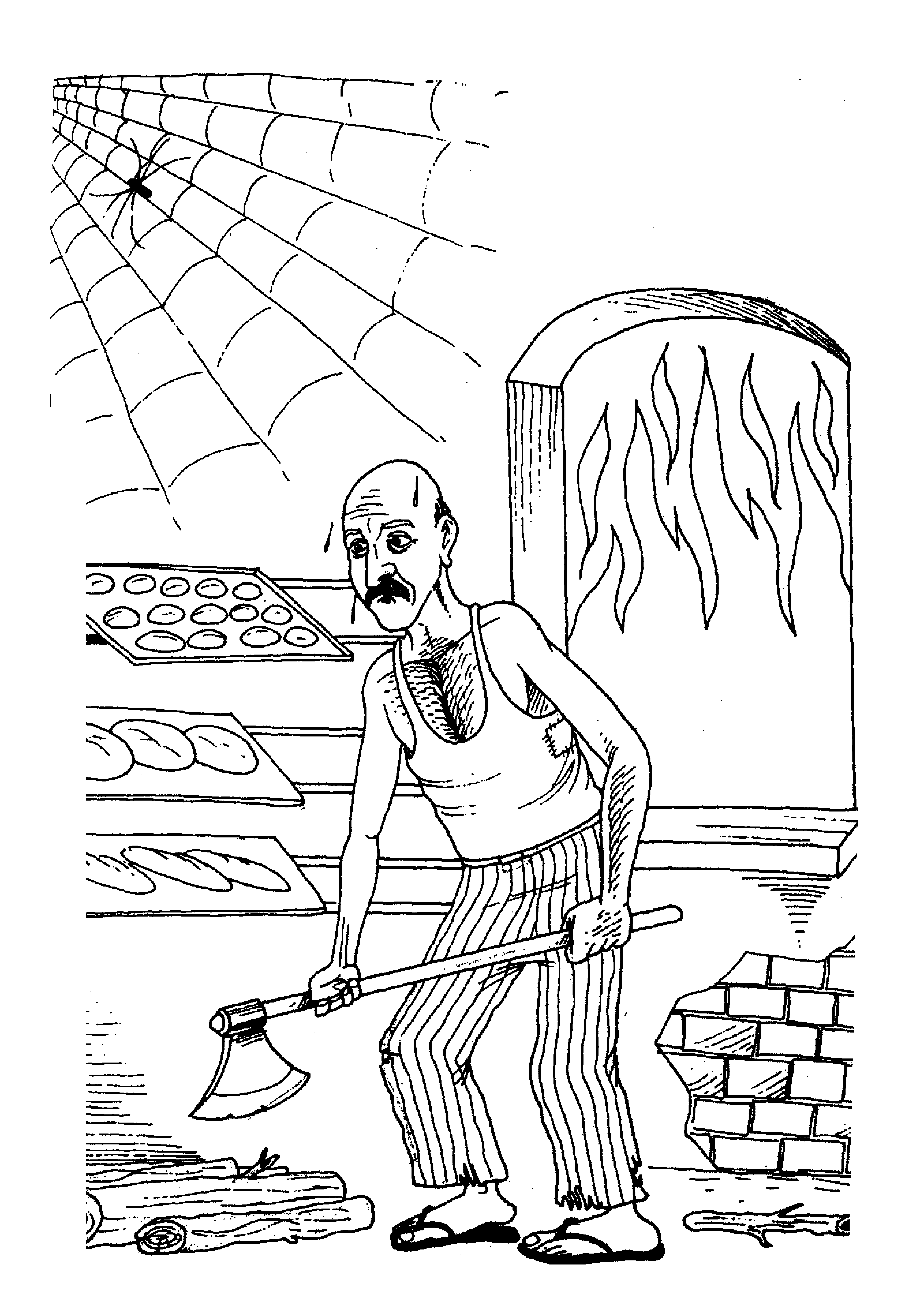
واندست في الزحام. وبقيت أنا في مكاني، أضع يدي على فمي حتي سمعت أحدهم يصرخ:

ـ بلاك من الطريق!

1999



الفزّان



جاء والد الحاج المدني إلى الرباط من وادي درعة في الصحراء، أيام كانت أحياء المحيط والعكاري ويعقوب المنصور ثلثا خاليا. جاء والله أعلم سنة 1940.

كان في الوادي، يقوم بأعمال السخرة من بناء وشق طرق وفلاحة، كما عمل سقاء ومسحراتيا وطباخا في الأعراس وما إلى ذلك. "سبع صنايع (كما يقول المثل) والرزق ضايع". وقد ظل الرزق ضائعا حتى بعدما جاء إلى الرباط ولحق بأخيه في حديقة التجارب الزراعية في شارع النصر، وأصبح يعرف ب "البستاني". حديقة التجارب قامت على عاتقه وعاتق أخيه. كان يفخر بذلك أيام الفرنسيين، عندما كانت بالفعل حديقة، أما اليوم!

ما علينا! الحاصل أنه عندما جاء إلى الرباط بنى إلى

جانب أخيه غرفة في برية على الساحل لا يملكها أحد. أقول بنى تجاوزا لأن الغرفتين كانتا من الصفيح، أول غرفتين في أول مدينة قصديرية عرفتها الرباط. كان الأخوان يصليان الفجر ويتقلدان جرابي غذاءيهما ثم يضربان في الأرض الوعرة فلا يصلان إلى الحديقة إلا وقد استطال ظل الأشياء. وعندما بنيا بأهلهما وجاءا بهم من الوادي اتخذ كل منهما حوشا سيجه بلبلاب الفوليبيليس ذي الأزهار الأرجوانية.

كان أبناء الوادى بمجرد ما يبلغ الواحد منهم مبلغ الرجال، يضع قدميه في حذائه ويتوجه إلى الرباط، لاحقا بالأخوين في تلك البرية، منخرطا في تلك الحديقة، بانيا غرفة فمسيجها بأزهار الفوليبيليس الأرجوانية.

وفي تلك البرية ولد الحاج المدني الذي ما أن بدأ يميز الأشياء حتى كانت قد أصبحت مدينة قصديرية مترامية الأطراف بمساجدها وأفرانها وحماماتها ومستوصفاتها ومدارسها وأسواقها وغسول مجاريها الذي طالما خوض الحاج المدني فيه مع الصبيان بأقدام حافية. لكن السكان كانوا أسرة واحدة، كأن يدا رفعتهم من واديهم وحطتهم هنا، على بعد ست مائة كيلومتر، بلهجتهم وتقاليدهم وسحناتهم وكل شيء. كان على المرء أن ينظر إلى القصدير والبحر

ليتأكد أنه في الرباط وليس في وادي درعة.

ويمجرد ما أقفل الحاج المدني السابعة، أخذه أبوه إلى المدرسة ذات غداة ممطرة وهو يمسكه بيده الحديدية ويحمل عنه محفظته. وعند البوابة هبط إلى مستواه بحيث صار وجهه الفاحم، العريض تحت الطربوش الأحمر، أمام وجهه، وقال له وهو يضع عروة المحفظة في قبضته الرخوة ويصك يده الحديدية عليهما:

ـ ها انت آ ولدي، ها الكتب! ها الأدوات! إيوا قرا على راسك باش ما تشقاش بحال بَّاك!"

ثم انتصب وضربه علي ظهره بلطف قائلا:

ـ سر! قرا إلا بغيت تقرا!"

وبقي يتابعه بين حشود الأطفال و لا يرى سواه وهو يمشي متصلبا، داخل حذاء وحلة العيد ما قبل الماضي، الذين ضاقا عليه.

وعندما دق جرس الخروج وجد الطفل الأزهار الأرجوانية والأوراق تلمع في ضوء الشمس الخافت وأباه يحمل إسفنجة[1] في دومة مدها إليه بيد وباليد الأخرى فرك

(1) حلوى مغربية، شعبية، دائرية الشكل، تصنع من العجين المقلي.

رأسه الأكرت الصغير ثم قفلا راجعين فقال الطفل:

ـ بًا!

ـ نعم أ ولدي!

ـ سرقوا لي الأدوات!

فنزلت اليد الحديدية على قفاه كالمطرقة و وقعت الإسفنجة في بركة ماء.

وصل إلى البيت باكيا فضربت أمه على صدرها وحلف أبوه أنه لن يطلع من هذه المدرسة بطائل ثم أمسك بلحيته وقال لزوجته:

ـ احلقيها لي إن طلع منها بطائل!

وكذلك كان. كأنه اطلع على الغيب. لبث في تلك المدرسة عشر سنين. كان الكتاب يبقى معه عامين، يبلى بين يديه ولا يفقه منه شيئا. كم طافت به أمه على الفقهاء والعرافات والأضرحة! وكم تبخر من بخور وتجرع من نقاعات وعلق من أحجبة! وعندما بشر بالطرد كان قد رأى العذاب. عندها استدعى المدير أباه وقال له:

ـ لقد مضى على الولد في هذه المدرسة عشر سنوات ولكن الشهادة الإبتدائية لا تعطى بالأقدمية.

فنزلت اليد الحديدية على قفاه وضربت أمه على صدرها وعزتها الجارات:

ـ أمر الله!

ـ الخير فيما اختاره الله!

ـ وهل مات آباؤنا وأجدادنا لأنهم لم يذهبوا إلى المدرسة؟

ـ خذيه ليتعلم حرفة والرزق على الله!

وهكذا أصبح الحاج المدني صبي فران. يستيقظ مع الديك فيفتح الفرن ويخرج الرماد وينظف بيت النار وينزل الحطب ويشعل الموقد ويشرع في صف ألواح العجين ثم رصها، كل لوح مع منديله. كان يلتقط الخبزة والنار ما تزال فيها ويضعها على اللوح ويرفعه إلى الرف ثم يسلم كل لوح لصاحبه في دقة الساعة. كان في أوقات الذروة يطير طيرانا.

وبعد الظهر كان يكسر الحطب، ما يسميه المعلم حطبا، والذي لم يكن في الحقيقة سوى جذور أشجار كالأضراس، يقع عليها أنى تكون، كأنه يتشممها. كانت صلبة كالصخر، يتوعر الفأس فيها. كان يعود إلى البيت بكفين منسلختين. ومع الأيام أصبح الجذع، تبارك الله، ينفلق كالبطيخة، بضربة واحدة من فأسه.

انسجمت ملكات نفس الحاج المدني في هذه الصنعة فأقبل عليها بقلبه وقالبه، لا سيما يوم الخميس، عندما يتلقى أجرته ويسلمها لأبيه. وفي ظرف ثلاث سنوات، أصبح معلما ينزل إلى الحفرة و كأنه أبوزيد الهلالي فلا يتوقف إلا بين الطرحات ليأخذ من الكيف نفسا ومن كأس الشاي المركز شفطة.

كانت أمه منذ فطامه تعمل عند أسرة فرنسية في الصباح وتنسج الحنابل في المساء وتضع الفلس على الفلس في رزمة تحكم عقدها وتدسها في الحشية التي تنام عليها. وفي عام الاستقلال، العام الذي أصبح فيه الحاج المدني فرّانا رحلت الأسرة الفرنسية تاركة لأمه الفيلا بما فيها، مقابل المبلغ الذي وفرته من شقاء السنين في الخدمة والنسيج فأصبح آل الحاج المدني بقدرة القادر يسكنون في أرقى أحياء الرباط. أما المسكن القديم فقد بيعت أرضه بعدما دخلت المدينة القصديرية في المدار الحضري وارتفع سعر المتر فيها، وأما العشة والفوليبيليس فقد كسحهما جرار في رمشة عين.

وبعد أيام تناقشت الأسرة في أمر الفيلا فقالت الأم:

ـ نكتفي بالطابق العلوي ويحول المدني (لم يكن قد حج بعد) الطابق السفلي إلى فرن.

فوافق الأب والإبن، لاسيما والحي يتمغرب بعد رحيل الفرنسيين.

وهكذا كان الحاج المدني أول فران في أكدال. كان فرنه قد عمل وشبع عملا قبل أن يسمع أحد في هذا الحي لا بالحمام ولا بالمسجد. ورغم ذلك ظل آل الحاج المدني في صبغتهم، ما تنكروا لمدينتهم القصديرية ولا تكبروا على أبناء جلدتهم، كأنهم لم يصبحوا من سكان الفيلات، حتى أن الزفة في عرس الحاج المدني جاءت من هناك، من مدينة القصدير.

وظل الحاج المدني على تلك الحال حتى بعدما التحق أبواه بالرفيق الأعلى. وأعطاه الله حتى أصبح الفرن يعمل بالليل أيضا بعدما تعاقد مع كبار ممولي الحفلات، وحج سبع حجات، عدا العمرات. هو الآن يتبوأ مجلسه في وقار خلف مبسط الحاجز الخشبي تحت لوحتين، الأولى عليها سورة الإخلاص والثانية سعر الخبز والحلويات. وفي أوقات الذروة، عندما يرى الفرن، تبارك الله، يغلي والنقد ينهمر في الصندوق، يذكر أيام المدرسة ويحمد الله على أنه لم ينجح فيها.

1999

"ميدي"



عثمان أول من تزوج فرنسية في المغرب كله. عرف تيريز في الشغل وكلف بشعرها الأشقر ورشاقتها. ذلك أنه أيضا المغربي الأول الذي وظف في مكتبة فاس العمومية وأول من عرف رهافة العيش الفرنسي وكيف تنسجم ملكات النفس بالطبخ الرفيع والمقعد الوثير والستائر الفاخرة والأضواء الخافتة والموسيقى الهادئة والحديث الهامس والأزهار والعطور...

كان وهو في الصالون يحس أنه قاعد في الجنة فيحمد الله على كل ذلك النعيم ويسأله أن يجعله مقيما. إلا أنه لم يَنْوِ أن يأتي بتيريز إلى الإسلام، إطلاقا، لأنها هي أيضا متشربة بمسيحيتها، ولا ضير فهي "ذات دين وليست سائبة". وكانت من جهتها تقول لنفسها الشيء ذاته وتختصره هي في أنهما في نهاية المطاف "يعبدان ربا واحدا، كل بطريقته".

ومر العام وهما في بحبوحة من السعادة. وفي بداية العام الثاني وضعت تيريز مولودا ذكرا. ودخل عثمان غرفتها في المصحة ومضى نحو السرير الصغير المغمور بالبياض والدانتيلا وانحنى يتأمل القبضتين الصغيرتين والعينين المغمضتين والشعر الفاحم، المسرح على شكل عرف الديك ثم قال والفرحة تنط من وجهه:

ـ شعر أبيك يا محمد!

فردت تيريز على الفور:

ـ لقد سميته نيكولا! سميته وانتهى الأمر! لن يكون "محمد" أبدا!

طارت الفرحة من وجه عثمان وقال مغاضبا:

ـ لن يكون "نيكولا"! أبدا!

ومر شهر والوليد بلا إسم، شهر ران فيه العداء على البيت حتى أصبح عثمان يحس وهو في الصالون أنه قاعد في جهنم. ثم تدخل أولاد الحلال وبعد مفاوضات ومداولات قبل الزوجان أن يكون الإسم محايدا فعرضت عليهما لائحة من الاقتراحات اتفقا من بينها على "مهدي". إلا أنه تحور منذ اليوم الأول، في فم الأم ومحيطها، إلى ميدي وتكرس

فيما بعد في المدرسة الفرنسية التي التحق الطفل بها وفي فمه هو ذاته لأنه لم يكن يعرف العربية.

اتعظت تيريز مما حدث فتجنبت الإنجاب بأنجع وسائل العصر وأقر عثمان فعلها ضمنيا فشب ميدي وحيد أبويه. ولم يشعر أحد بتأثير ذلك عليه حتى وجدته أمه مرة يسند ذقنه بكفيه ويحدق في الجدار وسألته:

ـ فيما تفكر يا ميدي؟

فأجابها:

ـ في أولادي الذين لن يكون لهم لا عم ولا عمة.

لكن ميدي لم يكن لينجب أولادا لأنه توفي في حادثة سير وهو راجع من المدرسة. كانت الأم في فرنسا فهب أهل عثمان لمساندته في مصابه الجلل كما تقضي العادة، رغم ماكان قد اعترى علاقتهم به من فتور منذ زواجه.

وصلت تيريز صباح اليوم التالي وما أن عبرت باب البيت المفتوح حتى تداعت مغمى عليها. حسب الناس أنها صدمة الموت وبالطبع كان للموت تأثير ولكن صدمة تيريز سببها المنظر الذي وجدت بيتها عليه، أولائك الأهالي

بجلابيبهم البيضاء وطرابيشهم، وتلك التراتيل، وذلك البخور!

كانت الصدمة من الشدة بحيث لم تستعد تيريز وعيها إلا بعد حضور طبيبها الخاص. وبمجرد ما أفاقت أدركت الواقع فهبت نحو غرفة ميدي. وجدت جثته على خشبة، ملفوفة في قماش أبيض كالمومياء، بحيث لا يظهر منها إلا الوجه و فقيها منحنيا عليها بينما زوجها واقف على مقربة.

ازداد وجهها امتقاعا وارتعشت عضلاته وتوجهت نحو الزوج فلطمته باليد اليمنى ثم باليد اليسرى ثم جرت الفقيه من قلنسوته إلى باب الدار ورمت به فارتطم بالحائط والتفتت نحو المقرئين والمعزين وهي ترغي بكلمات، بصوت مشروخ، وتشير بسبابتها إلى الباب المفتوح حيث كان البعض يساعد الفقيه على النهوض والإصلاح من هندامه.

خرج آخر رجل فصفقت الباب وانقضت على المهتف. طلبت قسيس كنيستها أولا ثم الدار الجنائزية ثم أهلها وأصحابها وما هي إلا دقائق حتى كان البيت غارقا في سواد السحنات الأوروبية والقبعات.

دخل القسيس غرفة ميدي فكشط عنه الكفن وألبسته تيريز أحسن ثيابه ثم وضعت الجثة في تابوت من خشب أملس، مبطن بمخمل أخضر. ورُدَّ الغطاء عليه ثم وضع في عربة جنائزية سوداء تكسوها أكاليل ورد من كل لون، سارت في مقدمة الموكب إلى الكنيسة حيث أدخل التابوت مسبوقا بالصليب وأقيم القداس، ومن ثم إلى مقبرة المسيحيين.

1999

عبد الرحيم



بطل هذه القصة ابن عم أمي الشقيق، شاب في السادسة أو السابعة عشرة. لا أدري. تمثلتُه منذ البداية أشقر، هزيلا، عليلا، في جلباب نحيل وعمامة لينة وخف فاقع. وهو سمت ملفق، لا يوجد في سرد أمي. استقيت وهنه من مأساوية الأحداث ومن الحسرة التي تغشى صوت أمي وملامحها ومن الإسم نفسه. "عبد الرحيم"، الجزء الأول منه ينبئ فعلا، بقلة الحيلة والرحيم فيها رنين الأنين.

وحيث كان مثل أمي، بكر أبيه، وأن الأخوين دخلا بأهلهما في ليلة واحدة فلا بد أنه كان في مثل سنها وأن تكون أحداث هذه القصة قد وقعت حوالي الثلاثينيات. أفترض أيضا أنه كان صبي حداد لأن الحدادة كانت في عائلتهم منذ خروج أجدادهم من الأندلس، مثلها مثل الفلاحة التي كانوا يمارسونها، بمهارة أيضا، في بساتينهم. كان ذلك معلوما بالضرورة فلم تكن أمي في حاجة لذكره.

ما كانت تتوقف عنده هو ولع عبد الرحيم بالغناء. تلفظ العبارة وتتمهل لتزن كلامها ثم تضيف: "ولع يعني ولع!" وقد كان اللفظ حاسما بالفعل أو كما تقول: "لب القضية". وهو ما يوحي بعتابها للمقدر والمكتوب الذي جعل عبد الرحيم يولد في المغرب عوض مصر. ولو ولد في مصر لكان محمد عبد الوهاب ولِمَ لا، أو لكان له شأن عظيم.

كان عبد الرحيم يغني قصائد الملحون وكان يجمع بين حسن الصوت والصورة. كان الطرب يسري من حوله ويستشري حتى تشتعل الدار وينهمر نقد الحريم من الطابق العلوي، مصحوبا بـ "الصلاة والسلام على رسول الله! ولا جاه إلا جاه سيدنا محمد! الله مع الجاه العالي!" تتلوها الزغاريد، حتى أن الناس بدأت تدفع له مقدما وتحدد مواعيد أعراسها وفقا لبرنامجه.

"لكن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن." تقولها أمي بالفصحى، بصوت منداح ثم تعلق بالعامية متنهدة، متسائلة عمّ كان سيحدث لو أنها جرت بما تشتهيه السفن. والمقصود بالرياح هنا عمها. انتظره ذات ليلة صيف حتى رجع يعتضد عوده ففتح له الباب وقال:

ـ لم تنطفئ الشمعة إلا الآن؟ تدخل علي عند الفجر

كالقينة يا عدو الله! أجدادك كانوا يحيون لياليهم بالصلاة والصلاح وأنت تحييها بالمواويل والليالي الملاح!

ـ ليس الدين اكفهرارا. الصحابة. . .

ـ وهل بين الصحابة من كان مغنيا؟ أجدادنا لم يتركوا لنا عقارا ولا فدادين. تركوا الحسب ولن أدعه يتقوض على يديك! لن أدعك تقضي على مستقبل أخواتك! يا معرة الرجال! يا شيخ الغناء!

ثم زاد أن الشك بدأ يساوره في أن يكون من صلبه ولكن هذا الكلام لم يؤلم عبد الرحيم لأنه كان ذاهلا تحت تعيير أبيه له بـ "شيخ الغناء" كما لم يع تحذيره بأن يرعوي وإلا فهو ساخط عليه إلى يوم القيامة. ولما ظل مبلما حثه بعنف:

ـ هيه! ماذا تقول؟

ـ سوف. . .

ـ وتسوف؟ يا ابن الحرام؟

فار بغتة كما تفور القدر وهرول إلى المطبخ ثم عاد يحمل سكينا. نزع العود من يده وقَدَّ أوتاره ثم ضرب به على الحائط ضربة لم تبق إلا على المقبض والمفاتيح، معلقة فيها بقايا الأوتار. لكن الولد اشترى عودا آخر تركه عند

واحد من أفراد الجوق، وواصل تعهداته.

وبينما هو يحيي أولى الليالي بعد ذلك لمح أباه داخلا يتخطى الناس إليه. قطع الموال وبقي فمه منفرجا. وتوجه الأب نحوه فنزع العمامة من فوق رأسه ورماها على رقبته ثم جره بها خارج الدار وفي الأزقة والتجار يتطلعون من فوق عتبات دكاكينهم العالية، والمارة يتوقفون للسؤال أو الشفاعة أو لمجرد الفرجة. والذين حاولوا فك الإبن أو حث الأب، من باب "الدين النصيحة"، على تنفيس الخناق، على الأقل، لم يعرهم اهتماما.

في البيت ألقى به كالخرقة في أول غرفة بالطابق السفلي إلى اليمين وأغلق الباب بالمزلاج ثم أقسم بالحرام وآخره ثلاث أن يلحق به كل من سولت لها نفسها فتح هذا الباب.

ومر يومان والولد في حبسه لا يسمع له حس. كانت أمي تمر عليهم عدة مرات في اليوم لتعرف الأخبار فلا تجد إلا مزيدا من لغط النسوة وبكاء الأم وبناتها. وفي اليوم الثالث كانت هناك وسمعت ما قاله عمها.

فقد قال إن الولد خسر نفسه وأنه لا يريد أن يحسب عليه روحا وبإمكانهم أن يفتحوا الباب وأجره فيه على الله.

تحول البكاء إلى زغاريد وتداعت الأم وبناتها على الأب يقبلن يديه وجها وظهرا.

شعرت أمي أن نظام الكون انقلب، أن الرياح تجري بما تشتهيه السفن، لاسيما عندما رأت الأب يكلم ابنه ويأمره بالاستعداد للذهاب معه، غدا بعد صلاة الفجر، إلى البستان لأنها نوبتهم في السقي.

لم ينم عبد الرحيم من فرحته. وعندما ارتفع صوت المهلل قفز من الفراش. توضأ ولبس ثياب الحقل وجلس ينتظر نداء أبيه.

صليا الفجر في الجامع جنبا لجنب ثم ضربا في الطين والأب يتقلد جرابه. ودخلا البستان فأغلق هذا الأخير بوابته وأخرج من الجراب حبلا رماه على الولد وشد به وثاقه إلى جذع التوتة ثم شمر أكمامه وتفل في كفيه وتناول الهراوة التي يحتفظ بها في أعلى صلب الشجرة وهوى بها عليه جزافا.

وقعت الضربة الأولى على رأس عبد الرحيم فلم يستجر أو يصح. ورأى الأب في ذلك عنادا فاحتدمت ضرباته وبدأت تند عنه هَنّات متزامنة معها كأنه يدق الذرة.

وأخذ الضعف يعتوره فأرجع الهراوة إلى مكانها وفك وثاق عبد الرحيم فانكب على وجهه، مغشيا عليه وذهب هو في حاله إلى شغله تاركا إياه ليفيق على مهله.

في آخر النهار وجده ما يزال في مكانه فوقف عند رأسه وصهل: "قم، أيها الكلب! قم وكفاك تماوتا!" لكنه لم يتحرك فشب الأب على قدميه وأخرج الهراوة من جديد. وكزه بها في جنبه فانقلب على ظهره وإذا هو جثة هامدة.

هنا تتوقف أمي، كأنها نهاية عادية، كأنها تقول: "إبن يصدع بالعصيان وأب يؤدبه". نعم في سردها حسرة ولكن ليس فيه تجريم. لا تقول حتى كيف عاد به. مسجى على وجهه، على ظهر الحمارة ولا شك، رأسه في جانب وقدماه في الجانب الآخر. ولا كيف واجه نفسه والناس والأم وبناتها، أولائك اللواتي تجعلهن بلا إسم ولا ملامح ولا كلمة ولا حركة فيما عدا البكاء، طبعا، والزغاريد وتقبيل يدي الأب وجها وظهرا.

كان هذا السرد يغيظني فأرد بالاستياء، لكن ذلك كان يدفع بأمي إلى الإمساك فبدأت أكتفي بالتذمر الصامت. ولو كانت هذه قصتي لأدخلت الأب السجن أو جعلته يصاب

بالكرب على الأقل. لو كانت قصتي لما طرحتها بهذا الشكل على كل حال. كنت سأملأ المزيد من الثغرات. أضفي على البطل شيئا من الحمية والألوان بقدر ما هو في سرد أمي لين وياهت. أجعله مفتول العضلات، داكن السمرة، من عمله في الورشة والحقل وأبدأ بتغيير اسمه. أسميه "عبد العزيز" مثلا. أجعله يمج استبداد الأب بقدر ما يستمرئه في سرد أمي. أجعل للنساء في القصة وجودا، الأم على كل حال. أعطيها كلمة في مصير ذلك الولد فهو ولدها بحق السماء!

كنت لا أتوقف عند تلك القفلة وإنما أسترسل إلى أن يصبح الأب واهنا، من المرض والمشيب، معكوفا، يقبع في الركن والمجمرة بين يديه فالوقت شتاء وبرد العام قاس. آه! وجدتها! البنات انتقلن إلى بيوت أزواجهن والأم إلى جوار ربها ولم يبق في البيت الكبير سوى "عبد العزيز". أجعله في عنفوان أبيه يوم قتله تحت الشجرة "يوم توفي كما كانت أمي ستصحح". أجعله يقوم بأمور الغناء والورشة والبستان ويحدب على الأب كأنه أحد أبنائه، فقد تزوج بالطبع، وأنجب لحد الآن أربعة بكرهم أيضا ذكر في السادسة أو السابعة عشرة. وأكثر من ذلك أجعله ينزل عند نزوة العجوز ويزوجه.

ظل هذا الولد يشغل بالي وظللت أتمثل أباه وقد أصبح الآن بالفعل، طاعنا في السن، يمشي بخطى بطيئة، بطيئة إلى الحد الذي يخيل إليك أنه يبحث في الأرض عن شيء وقع منه. أراه وحده في وحشة البيت الكبير، البارد، الفارغ، لا حفدة ولا عبد الرحيم ولا هم يحزنون، كما في القصة الحقيقية، ليس معه سوى الهذيان: "عبد الرحيم مشدود إلى التوتة"، "منكب على وجهه"، "يلكزه فينقلب"، "مسجى على الحمارة"، "هو يشمر أكمامه ويتفل في كفيه"، "الهراوة في أعلى صلب الشجرة"... تلك الهراوة! لا يعقل أن يكون قد أبقى عليها كما لا يعقل أن يكون قد تلقى كل تلك المأساة بكل تلك البساطة. لابد أن يكون قد صدم، تألم، ندم، بينه وبين نفسه على الأقل، لابد أنه ندم وأنه الآن يلوم نفسه.

ولو ذهبت إلى بلدتهم لوجدتها كما هي في ذهني ولعرفت الطريق وحدي إلى الدار ودخلتها، فضلف الباب الأيمن موارب دائما. أتجه نحو الغرفة التي حبس فيها عبد الرحيم، في الطابق السفلي إلى اليمين، وأجد العجوز في القاع، في العتمة والصقيع، بين يديه مجمرة ولكن ليس بها سوى رم بارد.

1999

ببليوغرافيا

عبد العالي بوطيب

1996، المغرب. عام الفيل، رواية المفارقات المغربية. سلسلة ندوات، عدد 9 (المرأة والكتابة) جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس، ص 65-79.

بثينة شعبان

1999، سوريا. سيدات المهنة. مائة عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب، بيروت، الفصل الثامن.

Michael Hall

1995, Australia. Leila Abouzeid's Year of the Elephant: A Post-colonial Reading. Women a cultural review, vol 6 no 1 Oxford University Press, pp 67-79.

John Maier

1996, USA. Exchanging Strangesness: Fiction of Jane Bowles and Leila Abouzeid. Mirrors of the Maghreb, Cararan Books, Delmar, New York, pp 151-185.

John Maier

1996, USA. Leila Abouzeid's, "Divorce". Desert Songs, Western images of Morocco and Moroccan images of the west, State University of New York Press, pp 197-201.



المحتويات

كتب للمؤلفة

روايات

عام الفيل

الفصل الأخير

سيرة ذاتية

رجوع إلى الطفولة.

أدب رحلة

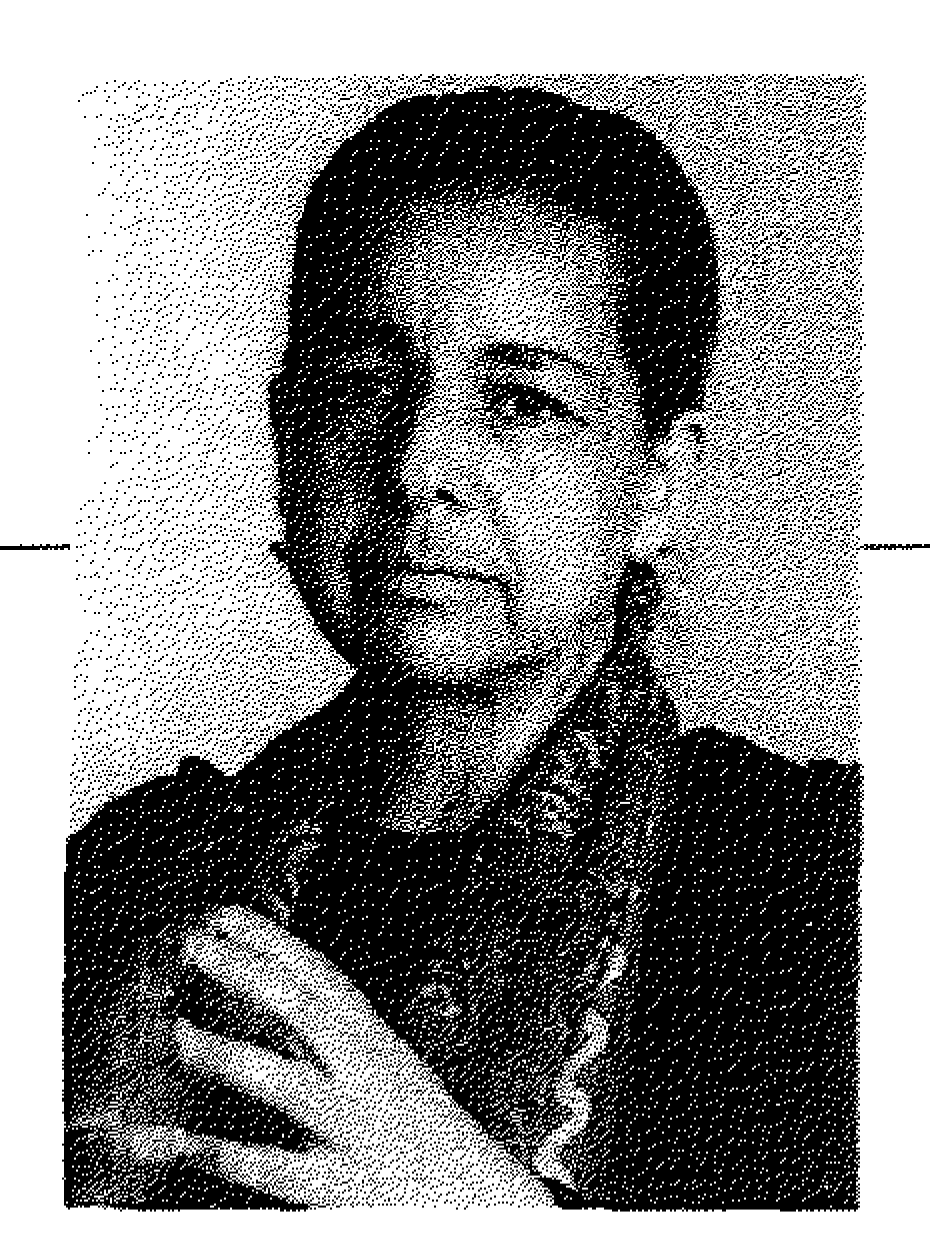
بضع سنبلات خضر.

أمريكا، الوجه الآخر.

مترجمات

محمد الخامس، منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته.

ملكوم إكس (MalcomX) ، سيرة ذاتية.

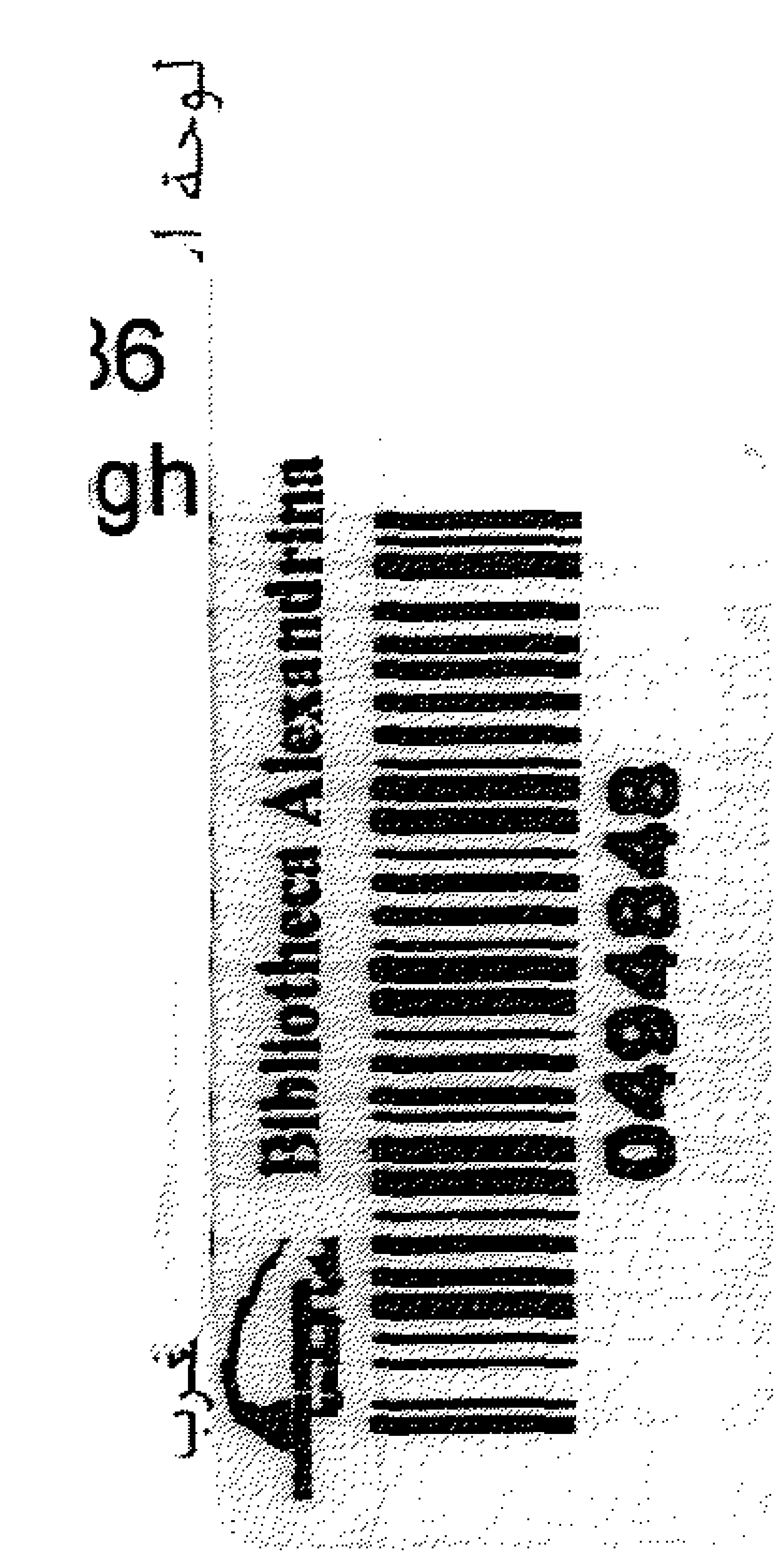


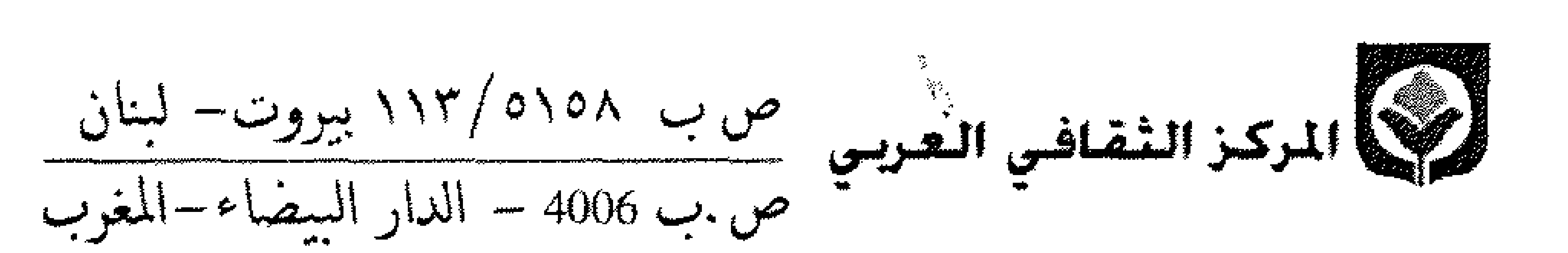
ليلى أبو زيد

الغريب

ليلى أبوزيد مؤلفة رواية عام الفيل التي لقيت اهتماما من النقاد ونشرت عنها مراجعات ودراسات باللغتين العربية والإنجليزية. حاصلة على الإجازة في اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعتي محمد الخامس بالرباط وتكساس بأوستين. بدأت حياتها المهنية كصحافية في الإذاعة والتلفزة المغربية وعملت في عدة دواوين وزارية.

ألّفت في أدب الرحلة والسيرة الذاتية، إضافة إلى روايتين ترجمتا إلى الإنجليزية والهولاندية والأردية، كما ترجمت من الإنجليزية إلى العربية سيرة محمد الخامس والسيرة الذاتية لملكوم إكس.




المركز الثقافي العربي
ص ب ٥١٥٨/١١٣ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء-المغرب